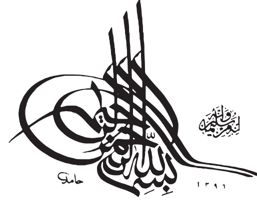
جنون العقل

# الربوبيون



عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم





إسطنبول ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م

إسطنبول: ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م

اسم الكتاب باللغة التركية: Aklın Cinneti /DEİZM

اسم الكتاب: الربوبيون/ جنون العقل

الترجمة: محمد عز الدين سيف

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN:٩٧٨-٦٢٥-٤٤٠-٣٥٨-٣

Language : Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:




▸ Adres: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi - Atatürk Bulvarı Haseyad
1. Kısım No: 60/3-C Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Faks : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.org

Web site : www.islamicpublishing.org

جنون العقل

# الربوبيون


عثمان نوري طوبَّاش



YÜZAKI
YAYINCILIK



# فهرس

**﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾** (النساء: ٦٣)

**﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾** (طه: ٤٤)



يحث القرآن الكريم الإنسان على التفكر ببيان نِعَم الله تعالى. ويوضِّح للمرء إبداع الله في الأنفس والآفاق، فيوصِله من الصنعة إلى الصانع، ومن السبب إلى المُسبِّب، ومن الأثر إلى المؤثِّر. فيقول الله تعالى في آيات كثيرة في كتابه الكريم:

**﴿افَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿افَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿افَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿افَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾**

# التقليد والحقيقة

يرسم رسَّام مشهور مشاهد طبيعية من هذا العالَم الذي خلقه الله سبحانه وتعالى، وتُعرَض هذه اللوحات في المعارض، ويأتي الناس ليروها من كل حدب وصوب، وينفقون الأموال الطائلة لشرائها، ويثنُون على الرسَّام بقول:

«ما أعظمَ صنعَ هذا الرسَّام».

مع أن الصانع الحقيقي إنما هو الله سبحانه وتعالى خالقُ هذا الرسَّام، وخالقُ المشاهد الحقيقية التي نظر إليها الرسَّام أثناء رسمه.

وعلى ضوء هذه الحقيقة ينظر أهل الله بِحيرة وإعجاب إلى اللوحات الحقيقية العظيمة التي تتبدل كلَّ ثانية طوال اليوم، والتي هي آثار فرشاة القدرة والعظمة الربَّانية.

إلا أن الغافلين الذين عَمَوا عن رؤية الصنعة البديعة في هذا الكون الفسيح يحارون ويقفون مذهولين أمام لوحات رسام مقلِّد عاجز فان.

علينا أن نفتح عيون قلوبنا لنرى اختلاف الألوان عند الشروق والغروب، ونشاهد الورود الملوَّنة التي تنمو من تراب أسود مظلم، وننظر إلى البحار والأنهار والجبال والوديان... فإذا نظر الإنسان إلى نفسه وإلى الكون نظرةً مليئةً بالمحبة، فمن المحال ألا يُعجَب أمام إبداع الله وهيبته وعظيم صنعه.

وعلى هذا الأساس يعيشُ أهل الله ذوو العقول السليمة بقلوب مليئة بالحيرة والإعجاب أمام الصانع الحقيقي وآثاره وآياته في هذا الكون، لا أمام لوحات رُسِمَت لتُذيَع صيتَ رسَّام، فيتلذَّذون بالإبداع الإلهي في تجليات القدرة الإلهية في الطبيعة.

وتتجه أنظارهم إلى أمور كثيرة منها: أوراق النباتات وأزهارها ذوات الألوان الكثيرة مع أن أصلها كلها تراب واحد، وثمار الأشجار التي تختلف فيما بينها من حيث اللون والرائحة والطعم والشكل ولا تكاد ترى تشابهًا بينها، والزخارف العجيبة المنقوشة على أجنحة الفراشات التي ما بلغ عمرها الأسبوع أو الأسبوعين، والدقائق الموجودة في خلق الإنسان، والعجائب الإلهية التي لا يحدها حد، مثل رؤية العين وإدراك الدماغ وما تعبِّر عنه هذه العجائب من أسرار بـ «لسان حالها».

وبعد هذا كله يغدو الكون لأهل الله كتابًا إلهيًّا مقروءًا، فقد تجاوزوا علم العلوم في السطور، ووصلوا إلى علم الصدور.

يقول الله تعالى في أول أمر له في كتابه العزيز:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق:١)

ويقول وليٌّ من أولياء الله:

«إن الله تعالى ليس بغائب في الحقيقة، لكنه غائب لشدة ظهوره من حيث إداركنا البشري».

إن الله سبحانه وتعالى صاحبُ تجليات القدرة والعظمة الظاهرة في كل شيء، وهذه حقيقة يدركها أهل القلوب المتفكِّرين المتدبِّرين على أفضل صورة.

# مُقَدِّمَة

الحمد لله سبحانه وتعالى حمدًا كثيرًا طيبًا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد، فقد أكرمَ الله سبحانه وتعالى الإنسان بنعمة عظيمة، ألا وهي نعمة العقل.

وهبنا الله تعالى نعمةَ العقل كي نفرِّق بين الخير والشر، وجعلَ تكليف الإنسان في الدِّين متعلقًا بهذه النعمة، فإنْ حُرِمَ منها، سقط التكليف عنه، أي مَن كانت لديه علة في عقله، عُفيَ عن المسؤولية.

غير أن العيش بلا مسؤولية على الرغم من سلامة العقل كان رغبةً قائمةً بين الناس من عهد سيدنا آدم عليه السلام، رغبة نفسانية تهدم دنيا صاحبها وآخرته وتأسره أسْرًا فتجعله عبدًا للشيطان عبر أهواء وميول شتى تحت شعار الحرية.

مع أن العقل مُنِح ليكون سبيلًا للنجاة من العبودية والأسْر، لا بل هو ميزان إلهي يقي صاحبه من الوقوع في الشِراك، ووسيلة للتفريق بين الخير والشر.

وإنْ لم يكن العقل كذلك، جُرَّ الإنسان من غفلة إلى أخرى، وصار كالمجنون الذي يضرب نفسه بسلاحه.

لذلك لا بد من التوازن والاعتدال للعقل حتى لا يقع في الإفراط والتفريط.

وذلك لا يكون إلا بالكتاب والسُّنة، وهما القسطاس الذي وضعه لنا خالقنا من عدم.

إن العقل آلة ووسيلة للخير والشر كالسكين بحدَّين.

وقد كان إبليس أول مَن جادل خالقه بأن جعل العقل آلةً للشر، فطُرِد وأُمِر بالإضلال. وكان قد وقع في الحسد والغيرة، فاعترض على إكرام الله تعالى لسيدنا آدم عليه السلام.

وإذا حلَّلنا هذه الحادثة تحليلًا دقيقًا، نجد بأن العقل لم يُنجِ إبليس من حماقته، بل أعانه بأن جعلَ منطقًا لخطئه، فعصى ربه بمنطق سخيف حين ادَّعى أن النار أعلى شأنًا من التراب، فخرج عن طريق الاستقامة ولُعِن.

ونحن أصحاب العقول أيضًا مُعرَّضون لهذا الخطر.

لذلك أكرمنا الله تعالى بقسطاس سليم يُبقينا على طريق الخير ويقينا من الشر، ألا وهو الكتاب والسُّنة، أي الإسلام.

لأن كل فكرة أو تيار أو ميل فُهِمَ بعيدًا عن هذا القسطاس باطلٌ كل حين. والشيطان- لعنه الله- يتبع السبيل الذي يقود إلى النار، وهذا يعني الوقوع في خسران وندامة أبدية.

من أجل هذا كان من الضروري إدراك الحقائق الإلهية قبل الوقوع في الخسران، أي قبل الهلاك. وإلا فإن الصحوة بعد وقوع الغضب والعذاب لا نفع لها ولا فائدة، لا بل تزيد من الحسرة والألم.

وهذا يبيِّن لنا أن السير مع التيارات البعيدة عن الإسلام بحجج منطقية ساذجة كأن يقول الإنسان: «هذه أفكاري ومعتقداتي لا علاقة لأحد بها» ما هو إلا بلاء ماحق وطامة كبرى لا تُطاق يوم المحشر، وإنْ بدا ظاهرها في الدنيا سرورًا وحبورًا.

ولكن الشيطان وأعوانه- مع الأسف- يُزيِّنون هذا السبيل حتى يسلكه الحمقى، وإلا فمَن يشتري مصيبة لا يطيقها؟ لا أحد. من أجل ذلك نجد أن الشيطان وأعوانه وأصحاب مراتع العصيان والفجور يتاجرون من وراء أنواع شتى من الزينة والمغريات. فيزيِّنون أرذل الأشياء كما تُزيَّن العروس ليلة زفافها، فتبدو كأنه لا شيء أجمل منها، وكذلك يزيِّنون أسوء الأشياء، فتبدو كأنه لا شيء أحسن منها.

وبهذه الطريقة نفسها يُسوَّق لفكرتَي الإلحاد والربوبية اللتَين صار يكثر تلقينهما للناس يومًا بعد يوم.

ولكن ما الإلحاد؟ وما الربوبية؟

إنهما جنون العقل.

إنهما رهنُ أعظم ما يملكه الإنسان وهو الفكر لأهواء نفسه وغوائلها. إنهما العيش كسفينة كُسِر مقودها فما عادت تعرف من أين جاءت وإلى أين تسير في بحر الغفلة. ومن الطبيعي أن يفقد مثل هذا الإنسان بصيرته وفراسته، ويموت إدراكه، لأن قلبه قد فسَد. ولا يستطيع أن يرى تجليات قدرة الله وعظمته وإبداعه في هذا الكون، فتعمى عينا قلبه، ويبيت كرجل آلي تتحكم به نفسه من بعيد.

لذلك يقضي الإنسان عمرَه الذي يعد أغلى بضاعة لديه ساعيًا وراء كل جديد من العلامات التجارية وطالبًا الأهواء المؤقتة، ويمسي قلبه خرابًا في دوامة الأنظمة البشرية، ويعيش غافلًا عن حكمة الحياة والموت، ولا يفكر بالآخرة، فيمسي- إن جاز التعبير- كمَن خُسِفَ عقله.

ونستطيع أن نذكر ثلاثة أسباب للضلال والانحراف الذين نشاهده اليوم:

**السبب الأول**

البُعدُ عن الدين، وما ينتج عنه من إحاطة الفكر الجاهلي بالإنسان من جديد، وحتى أسْرِه لأهل العلم.

وعندما ننظر إلى الإلحاد والربوبية، نجد أن هاتَين الفكرتَين الباطلتَين كانتَا موجودتَين في العصر الجاهلي. فالناس في الجاهلية ارتعدت فرائصهم من آيات القرآن التي تَذكُر الآخرة وما بعد الموت، والتي تخالف أهواءهم، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يغيِّر أمثال هذه الآيات بما يوافق رغباتهم، إذ جاؤوا إليه وقالوا:

«إيت بقرآن ليس فيه ذكر البعث... أو بدِّلْ منه ذكر البعث والنشور».[1]

«إنْ كنت تريد أن نؤمن لك، فائتِ بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى ومنات وليس فيه عيبها، وإنْ لم ينزل الله تعالى عليك فقل أنت من نفسك أو بدِّله، فاجعل مكان آية عذاب آية رحمة ومكان حرام حلالًا ومكان حلال حرامًا».[2]

أي إنهم رفضوا العيش بشرف الإنسانية، لأن ما جاء به القرآن لم تستسغه نفوسهم، وظنَّ أولئك الحمقى أن القوي يكون على حق دائمًا، فنأوا عن الحق والحقيقة.

١. الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، جـ٣، ص١١.

٢. الألوسي، روح المعاني، جـ٦، ص٨٠-٨١.

وقد قال الله سبحانه وتعالى عنهم:

**﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾** [٣]

وهذا تمامًا ما تريد الربوبية أن تحمل الإنسان إليه، فالربوبيُّون يقولون: «لقد خلقَ الله تعالى هذا الكون، وتنحَّى جانبًا- والعياذ بالله». فهو لا يتدخل في شيء، أي إنه خلق الحيوانات وتركها، وكذلك خلق الإنسان وتركه يفعل ما يريد، ولكن هيهات أن يكون ادعاؤهم حقًّا!.

لأن خلق حتى الحيوانات لغاية، فأيٌّ من خلق الله كان بلا غاية؟.

النحل مثلًا يصنع العسل، والدجاج يعطي البيض، والبقر تقدم الحليب، والأحصنة تحمل الأحمال، والنمل خير مثال للنظام والدقة في العمل الجماعي، وثمة أمثلة كثيرة في هذا الشأن.

والطيور بأصنافها الكثيرة تجعل الإنسان يشاهد إبداع الخالق وعظيم صنعه، وتندهش العقول من قدرة الله المتجلية في مخلوقاته من العصفور إلى الفيل، ومن الذبابة إلى الحوت. وحتى الحيونات مثل الحية والعقرب ترشد الإنسان وتذكِّره بشدة العذاب.

يقول الله سبحانه وتعالى:

**﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [٤]

ويبيِّن الله تعالى هذه الحقيقة في آية أخرى بقوله:

**﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً...﴾** [٥]

---

٣. يونس: ١٥.

٤. الجاثية: ١٣.

٥. لقمان: ٢٠.

ثم قال في آخر الآية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[٦]

فإذا كانت الحيوانات قد خُلِقَت لغاية، أفيكون خلق الإنسان بلا غاية وليعيش بلا سعي؟

والجواب عن هذا السؤال واضح وضوح الشمس في رائعة النهار في قوله تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٧]

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٨]

أي إن كل مخلوق من أصغره إلى أكبره لوحةٌ للاعتبار، وإبداع من الخالق الجبَّار...

فإذا لم يكن عدم الانتقال من الأثر إلى المؤثر ومن الإبداع إلى المُبدِع ومن السبب إلى المسبِّبِ، جنونَ العقل، فماذا يكون؟

وإذا لم يكن البقاء في جهل أمام بديع صنع الله وحقائقه الكثيرة التي ترشد العقل بأفضل صورة من الذرة إلى المجرة، جنونَ العقل وإفلاسه، فماذا يكون؟

وتلك العقول التي ابتعدت عن وحي الله فصارت كالآلة ألم تُلغي من نفسها صفةَ الإنسانية وشرفها؟

وذلك الذي يعدُّ النظام الدقيق والإبداع المتجلي الدائم في الأنفس والآفاق والعوالِمِ بلا سبب ولا غاية ولا مقصد، أليس مسكينًا اغترَّ بعقله وجعل قلبه خرابًا؟

إننا إذا استعملنا عقلنا بصورة سليمة، وجدنا في كل شيء آلاف الطرائق للتفكر. وإذا أمعنا النظر بصورة جيدة في كل حقيقة، وجدنا مجالاً واسعًا للتأمل والتدبر. وهاكم مثال من أمثلة لا تُعَد ولا تُحصَى:

---

٦. الحج: ٨.

٧. المؤمنون: ١١٥.

٨. الأنعام: ٥٩.

كان عدد سكان العالَم ٥ ,١ مليار عام ١٩١٥م، أما اليوم فهو ٧ مليار. فلم تقف الأرض عاجزة عن إنتاج ما يحتاجه الناس مع أن عددهم تضاعف مرات عدة. فكلما زاد عدد الناس، زادت موائد الله. أما وجود مَن يعانون من المجاعة في الأرض بسبب استغلال بعض من الناس الغافلين، فهو يشير إلى حقيقة أخرى، أي إلى مشهد فقدان الرحمة. ولو لم يكن هناك استغلال ونهب للثروات، لما عُرِفَ شيء اسمه مجاعة على هذه الأرض. ولو زال الإسراف وحياة الترف، لكفت الأرض حاجة الناس وزادت على كفايتهم. أي إن الأرض تقدِّم لجميع الناس ما يكفيهم وإنْ تضاعف عددهم، لأنها تابعة لبرنامج الرزق الإلهي. وما القلق الأعمى في هذا الموضوع إلا غفلة وجهالة.

لأن هذه الغفلة والجهالة كانت سببًا لظهور حماقات قبل قرون، أي حين لم يبلغ عدد سكان الأرض حتى المليار، وقد تجلت هذه الحماقات في قول بعضهم:

«لا تستطيع الأرض أن تلبي حاجة كل هؤلاء الناس، لا بد من قتل الفائض من الناس، لا بد من التخلص من المواليد الجدد».

غير أن حقيقة الأمر أن صاحب القدرة المطلقة الذي يُقدِّر رزق الناس في كافة الظروف والأحوال، قد أكرمَ دائمًا أبدًا عبادَه من وافر نعمه على اختلاف عددهم.

وبحسب العاقل هذه الحقيقة كي يدرك عظمة قدرة الخالق!

والعصور كلها تشهد أن الإنسان يصل إلى العلوم شيئًا فشيئًا، وأن العلوم القديمة والحديثة رحمةٌ من الله تعالى وفضل وكرم كي نتفكر في عظمته وقدرته.

فطوبى لِمَن يدرك هذا الأمر، فيقرأ سطور الحكمة والحقائق في كتاب الكون هذا ويفهمها ويتدبرها!

**السبب الثاني**

إن السبب الثاني الذي يدفع الناس إلى الانحراف والضلال والربوبية سوءُ حال المسيحية اليوم.

فمن المعلوم في التاريخ أن المسيحية أُفرِغَ محتواها على يد بولس وطائفة «شهود يهوه».

- ووضعَ أناس في المجمع الكنسي عقائدَ الدين.
- وزالت حياة العبادة بتحويل الصلاة إلى طقوس، والصوم إلى حمية، والختان إلى تعميد.
- ومُنِحَت الكنيسة صلاحية التكفير عن الذنوب مقابل المال. وكيف لإنسان أن يكفِّر ذنوب إنسان آخر مثله؟
- ومُحِيَت قواعد الدين في الحياة الدنيا بقول: «ما لِقيصر لِقيصر». وصار الدين محبوسًا بين جدران المعبد. وكيف لرئيس دولة أن يجد في نفسه الصلاحية المطلقة في موضوع المعاملات والعقوبات؟
- وحاربت المسيحيةُ المتعصبة الحقائقَ العلمية. ولاحقت محاكمُ التفتيش العلماءَ، وأشهر مثال قضية غاليليو.

فظهرت أفكار ترى العلم والدين متناقضَين نتيجة هذا التعصب المسيحي، وقيل: «إذا كنتَ محبًّا للعلم، فابتعد عن الدين».

لكن إذا كانت فكرة مواجهة دين باطل فكرة صحيحة، فإن هذا لا يعني صحة هذه الفكرة في مواجهة دين حق، لأن الإنسان كلما ازداد علمًا، ابتعدَ عن الخرافات، وصار أقرب إلى الدين الحق.

أي إنَّ مَثَل معاداة الدِّين الحق بدلًا من الاقتصار على معاداة الأديان الباطلة، كمثَل الإعراض عن كافة الأطعمة ولو كان فيها الشفاء من الأسقام بدلًا من الإعراض عن الأطعمة الضارة السامة، وهذا ليس إلا ضربًا من الانتحار. لأن الدين الحق رزق معنوي وشرط للروح، كما أن الرزق المادي شرط للجسد. وهذا يعني أن قول: «سأُعرِض عن هذا الأمر كله» بدلًا من الإعراض عن الضار فيه ليس إلا حماقة ما بعدها حماقة.

إن الفلسفة الخدَّاعة الخبيثة تخفي حقيقة هذا الأمر وراء ستائر ملونة، وتعرض على العقول في أطباق زاهية ضرورةَ ابتعاد مَن ينشغل بالعلم عن الإيمان والدِّين. ونرى مع الأسف أن كثيرًا من الدارسين قد وقعوا في براثن هذه الفلسفة، فجرَّدت هؤلاء الغافلين من دينهم.

وحقيقة الأمر كما قال أحد المفكِّرين:

«إذا فُصِلَ بين العلم والدين، جرَّ الدينُ صاحبَه إلى التخلف، وجرَّ العلمُ صاحبَه إلى الربوبية».

وقد ضلَّت المسيحية المحرَّفة لأنها ارتكبت هذا الخطأ في التاريخ. ولم يزعج هذا الضلال الخطير أحدًا في البداية، لأن هذا الدين تحوَّل إلى هيكل يوافق أهواء النفوس. فأرسلَ الله تعالى نبيَّه بدين الإسلام، فأبطل المسيحية المحرَّفة والأديان السابقة كلها.

وصارت المسيحية التي أبطلها الله تعالى وسامًا شكليًّا لا غير، وسامًا لا يمنح أتباعه أي شيء من الروحانيات والطمأنينة والسكينة...

والحق أن أتباع هذه المسيحية يدركون مأساتهم، لكنهم يسعون ليريحوا ضمائرهم بجرِّ الإسلام الدِّين الحق الأخير إلى عاقبة سيئة كعاقبتهم، بدلًا من أن ينجوا مما هم عليه. والمؤسف أنهم لا يستحون وهم يوصوننا نحن المسلمين بهذا الأمر. وحالهم كحال المريض الذي أصابه مرض خطير، فبدلًا من أن يحاول البرء منه، يقول للطبيب السليم: «خذ الفيروس من جسدي لتكون مريضًا مثلي! لا تتركني وحدي في مرضي هذا! دعنا نمُت معًا». وبناءً على هذا المنطق الأعوج قال البابا الحالي البابا فرنسيس في إحدى المقابلات:

«من الأفضل للمسمين أن يقوموا بأبحاث نقدية في القرآن تمامًا مثلما فعلنا نحن بنصوصنا المقدَّسة. ستفيد المقاربة التاريخية والنقدية في تقدمهم وتطورهم».

مع أن التطور الذي يقصدونه هو ميل الناس إلى الإلحاد والربوبية حين يرون الترهات في أديانهم الباطلة، ثم حقن هذا الميكروب في الإسلام كي يجعلوا الحق لصالحهم.

وما التطور الحقيقي إلا البُعدُ عن الباطل والميكروب والاتجاهُ نحو الحق والعلاج.

عليهم أن يروا أن التناقض والتضاد في دينهم الباطل يدفع أتباعهم إلى الإلحاد والربوبية.

وجاء أول اعتراض على ما هم عليه من مارتن لوثر في القرن الخامس عشر، حين أتى بدين من عقله. وانقسمت المسيحية إلى ثلاث طوائف: الكاثوليكية،

والأورثودكسية، والبروتستانتية، وانقسمت كل طائفة منها إلى فِرق صغيرة كثيرة، وظهرت أفكار دينية متناقضة، ثم لم يطمئن المحرومون من الحق والحقيقة بهذا الدين الباطل، فنأوا عنه.

وصار أصحاب التيارات الفلسفية ممَّن يضمِرون النيات السيئة يوجِّهون سهامهم نحو الدين الحق، مستغلين أخطاء الأديان الباطلة والمحرَّفة ولا سيما المسيحية، وسعوا للتقليل من شأن الدين الحق والإيمان السليم، وحاولوا أن يؤسسوا أرضيَّةً لزرع الإلحاد والربوبية.

مع أن السبب الأساسي في كل هذا إنما هو المسيحية المحرَّفة وحدها.

أما الإسلام فبقي طاهرًا مطهَّرًا من هذه التحريفات، لأن الإسلام في حفظ الله تعالى، وسيستمر بوصفه الدين الحق الوحيد على الصراط المستقيم الذي حدَّده الله تعالى، وسيبقى كذلك إلى قيام الساعة.

لذلك فإن المُخاطَب الحقيقي باسم الدين في موضوع التناقضات بين العلم والدين والفراغ في المعتقدات لم يكن الإسلام قط، إنما الأديان المحرَّفة وحدها.

**السبب الثالث**

وهو الفلسفة المادية، أو بتعبير آخر: تطور الآلة...

لقد صادفَت مرحلة بُعدِ أوروبا عن المسيحية مرحلةَ تقدمها في العلوم وفي مجال الصناعة وغيرها. والبشرية منذ فجر التاريخ تسعى وراء القوة المادية، والأمثلة لذلك كثيرة، منها قوم عاد وثمود، وفرعون ونمرود.

فالمنكرون آنذاك استثقلوا ما جاء به الأنبياء والرسل، ولا سيما الشرائع والقواعد السليمة، لأنهم كانوا يريدون أن يعيشوا في عالَم تتحكم به أهواء نفوسهم، وأن يُعفَى عنهم ويُصفَح وينجوا من الحساب وإنْ ارتكبوا الكبائر من الذنوب والموبقات، وما كانوا يودون أن يعلموا أنهم سيموتون وسيُبعَثون، ولا يرد في أذهانهم الحقيقة المطلقة والمصير المحتوم. وكان الإنكار وسيلتهم الوحيدة للنجاة. وكانت مواساتهم الوحيدة ألا يدركوا حقيقة هذه الكذبة والخدعة الكبرى حتى يأتيهم الأجل، مع أنهم كانوا يعلمون أنه لم ينجُ أحد من المنكرين من عهد آدم عليه السلام.

وقد ظهرت أفكار مختلفة وإيديولوجيات سامة في القرن الأخير بصور أخرى لهذه الخدعة الكبرى.

إن المادِّيَّة تعني إنكار المعنى والروح والحكمة...

وقد تكون لها أقنعة سياسية أو اقتصادية، ولكنها في جوهرها قائمة على الإنكار...

فهي عندما ظهرت على هيئة الشيوعية أو الاشتراكية، رأت الدِّينَ «أفيون» الشعوب، فحاربته. وظهرت باسم المساواة، فخدمت أقلية معيَّنة، وقتلت شعبها شرَّ قتلة، واستعمرته وظلمته وراء شعار عدم كبت الشعوب الذي صارت تنادي به بأعلى صوت.

وأما الرأسمالية والليبرالية فقد قضت على الشعوب بالاحتكار ونظام «الكارتل». وتُظهِر الأبحاث أن خمسين من أثرياء العالَم يملكون ما يملكه ٥٠٪ من سكان العالَم...

فما أسوء هذه القِسمة!

وقد قالت الرأسمالية: «المُلكُ للفرد». وهي بذلك كانت تقول: «مَن أراد أن ينال ثروةً أكثر، ومَن أراد أن يكسب أكثر، (دعه يعمل، دعه يمر)، فلا حاجة لاتخاذ تدابير من أجل العدل والمساواة والرحمة في المجتمع».

وعندما سُئِلوا: «وماذا عن الفقراء؟» قالوا:

«إن الغنى الذي يأتي بالحرية سيعود على الجميع. فالأسعار ستقل، وسيكون هناك كثير من فرص العمل والرفاه...»

ولكن هيهات هيهات!

وليس ذلك إلا حكاية لفَّقوها كي يستغل أحدهم جهود الناس وآمالهم، ويجعلهم يقبلون الواقع. إنها حكاية لم تتحقق يومًا.

لقد تضاعفت أموال الرأسماليين والليبراليين، وزاد الفقراء فقرًا، وبات الكثيرون عبيدًا للربا.

وأما الشيوعية فقالت: «المُلك للمجتمع». فجعلت جميع المواطنين بمبدأ المساواة عمَّالًا للدولة، وقُسِّمَت ثروات الدولة على الجميع تقسيمًا متساويًا. وكانت الشيوعية

بلا شك حكايةً أخرى لفَّقوها كي يستغلوا طاقة الناس وأمانيهم ويقبلوا بذلك، ولكن هذه الحكاية لم تتحقق قط.

وظهر قادة الحزب في الشيوعية محلَ الاحتكارات في الرأسمالية، فصار الناس يعملون كالعبيد، وحصل قادة الحزب على امتيازات كثيرة. ثم سقطت الشيوعية لِما كان من ظلم فيها.

وكان الإسلام وحده الذي كان على النقيض من الرأسمالية والشيوعية هو الحل الوحيد لحل مشكلات الناس وزرع الطمأنينة والأمان في المجتمع.

لأن الإسلام قال: «المُلك ليس للفرد ولا للمجتمع، إنما المُلك لله، والعباد مؤتمنون عليه إلى حين...».

وعلى هذا الأساس قبِلَ الإسلامُ المُلكية الخاصة، ولكنه جعل الفقير في ذمة الغني، والضعيف في ذمة القوي. إذ أمر الغني أن يعطي الفقير الزكاة والصدقة بشعور العبادة. فربطت هذه الأخوَّة في الدين بين أبناء المجتمع بروابط الرأفة والمحبة، فبذل المؤمنون أموال الدنيا الفانية في أعمال الخير والحسنات بفضل إيمانهم بالآخرة، وعاملوا الفقراء برأفة ورحمة بفضل أخلاقهم الحسنة.

غير أن الإيدولوجيات التي تستغل الإنسان أهلكَته ماديًّا، فجعلته في غفلة كبيرة وساقته إلى سبيل الشر. وما عاد الإنسان يرى إلا الأنانية والمصالح المادية، وزالت الرحمة والرأفة من القلوب.

إن مبدأ الرأسمالية «دعه يعمل، دعه يمر» لا يضع أي رادع حقوقي أمام الربح، فيُبيح كل طريقة في سبيل بلوغ المقصود.

والجرائم التي تُرتكَب اليوم في سوريا وميانمار واليمن ما هي إلا نتيجة وخيمة للظلم ومبدأ عدم الاعتراف بالحقوق الذي تدافع عنه الربوبية...

وبينما يُسحَق الفقراء والمظلومون تحت الأقدام، أطلقت طبقة النخبة العنان لأهوائهم وميولهم النفسية، وصار الناس فريسة سهلة لما يُعرَض على التلفاز و«الإنترنت»، فراحوا يطلبون اللهو والمتعة.

ما عاد هناك حُكم ديني ولا وازع ضمير! ولا قلق من الآخرة! ولا أمور روحانية تخاطب القلب.

إن ما نشهده من تطور في الآلات يزيد من إعجاب الإنسان بنفسه. وقد قضت الرغبةُ بعيش اللحظة عيشًا ماديًّا على التفكير بالآخرة في القلب.

ونشرت ثقافةُ العولمة هذه الوحشية في كل أنحاء العالَم، حتى ظهر نوع من الإنسان يريد أن يعيش حياته كما يهوى بلا أخلاق، وبلا حقوق، وبلا ضابط يحكمه. ولا يريد هذا الإنسان العالق في دوامة أهوائه شريعة الإسلام الدين الحق.

مع أن أحكام الشريعة تعلِّم الإنسان كيف يعيش بشرف إنسانيته، وبرحمة، وحقوق، وعدل، وتواضع، وغيرها من الفضائل، لكن أتباع الهوى لا يريدون كل هذا.

ولهذه الأسباب الثلاثة التي ذكرناها يميل كثير من الناس إلى الإلحاد والربوبية.

إن الذين يجدون «الإلحاد» أمرًا مخيفًا بعيدًا عن المنطق لا يمكن قبوله يأتون بحيلة أخرى هي «الربوبية»، فيُقرُّون فقط بوجود الخالق، أملًا من النجاة مما هم فيه.

مع أنه لا فرق بين الإلحاد والربوبية، فكلاهما جنون العقل!

فإذا كانت حجة الربوبي قوله: «سأبتعد عن الدين، وأرتكب الحرام، وأعيش حياة بأهوائي، ولكنني لن أكفر. أنا بعيد عن الإلحاد والكفر»، فعليه أن يعلم أنه لا فرق بين الإلحاد والربوبية!

فليبحث أتباع الربوبية وليقرؤوا ما ينسبه الربوبيُّون للدِّين وما يتهمونه به، يجدوا أنه لا فرق بين قول الملحدين وقول الربوبيين.

إذا كانت قارورة سم تكفي قطرةٌ منه لقتل الإنسان، فهل يفقد هذا السم صفته بخلطه بقليل من الماء؟

ما الفرق بين الإلحاد والربوبية؟ هذا إنكار، والآخر إنكار إيضًا!

وكما أن النفاق كفرٌ أسوء، فكذلك الربوبية إلحاد أسوء!

إن هذا الكتاب الذي نضعه بين أيدي قرائنا الأعزاء بغية أن يدركوا حقيقة هذا الموضوع إدراكًا سليمًا، مبنيٌّ على أساس الرد على «الإلحاد والربوبية» والتعريف بعقيدة الإنكار أمام ذوي الأبصار.

وفي الختام ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجد شبابنا في هذا الكتاب الأجوبة عن الأسئلة والوساوس التي تُعرَض عليهم في «الإنترنت» وغيرها من الوسائل، وأن يكون هذا الكتاب دليلًا لإخواننا المنشغلين بالإرشاد وتبليغ الدين.

وما التوفيق والهداية إلا من المولى جلَّ جلاله.

وندعو الله العلي القدير مالِك المُلك ألا يجعل في أوطاننا وبين أولادنا منكرًا أو ملحدًا أو ربوبيًّا، وأن يحفظ إيمانَ ذريتنا وأولادنا وطلابنا...آمين!

عثمان نوري طوبَّاش

رجب ١٤٤٠- آذار/ مارس ٢٠١٩

آق مسجد/ إسطنبول



---

• أتقدم بجزيل الشكر للأستاذ محمد علي أشملي والأستاذ مصطفى عاصم كوجوك آشجي على جهودهما الكبيرة في إعداد هذا الكتاب، وأسأل الله تعالى أن يجعل عملهما صدقةً جاريةً في ميزان حسناتهما.



# الإيمان
# أكبر نعمة



الإيمان طمأنينة وسعادة.

وغيابه ذلة وسفالة، وتحول القلب إلى خرابة

وما أجمل قول محمد عاكف أرصوي:

الإيمان جوهر ما أعظمه!

وقلب بلا إيمان على الصدر ما أثقله!

# الإيمان أكبر نعمة

من أعظم نِعَم الله سبحانه وتعالى علينا وإحسانه تشريفُه إيانا بالإسلام والإيمان.

والإيمان تصديقٌ بالقلب وإقرارٌ باللسان، أي إنه يلِد من قلوبنا ومن هناك ينعكس على ألسنتنا وحياتنا وأعمالنا ومعاملاتنا وأخلاقنا.

وليس الإيمان بعمل الذهن. ولا شك أن المرء يحتاج إلى العلم الصحيح كي يؤمن، غير أن العلم لا يؤدي إلى الإيمان مباشرةً.

فإبليس مثلًا كان يعلم عظمة الله تعالى وقدرته، غير أنه حسد آدم عليه السلام على ما أكرمه الله تعالى به، فعصى رب العالمين وجادله، فقال عنه الله تعالى: (وكان من الكافرين).

وفي التاريخ أمثلة كثيرة لَمَن لم يؤمنوا لخصالهم السيئة التي تلد من نفسانياتهم مثل الحسد والحقد والغيظ، على الرغم من أنهم شهدوا معجزات كثيرة، وأقرُّوا قلبًا بصدق الأنبياء المرسلين إليهم وأخلاقهم واستقامتهم، ومن هؤلاء فرعون، وأبو جهل، والوليد بن المغيرة؛ أي إن كثيرًا من المنكرين رفضوا الإيمان لكِبرهم على الرغم من إقرارهم في ضمائرهم بما رأوه.

ذلك أن الإيمان عمل القلب، وقد عبَّر المعلم جودي أفندي عن هذه الحقيقة بقوله:

ما نفع العلم إنْ لم تكن الهداية منك يا رب!

وما نفع الآية لأبي جهل وإنْ علم العربية يا رب!

ولا بد لنا أن نذكر الحقيقة الآتية:

إن الإسلام فوق العقل، فهو الحقيقة العليا التي جاءت من رب العالمين. وليست وقاحة أعظم من قياس دين الله وأوامره وتقييمها بالعقل الذي خلقه الله وأكرمه للإنسان.

وهذا جانبُ الدِّين الذي يوجب التسليم. ذلك أن الإيمان غيبي، وعندما تُرفَع الحُجُبَ ساعة الموت فيرى الإنسان الملائكة وعلامات الآخرة، فهو حينئذ يكون قد أنهى امتحان الإيمان.

والمهم في هذا الشأن الإيمانُ بكتب الله السماوية ورسله بتسليم تام ودفعِ الوساوس والشُّبهات من القلب.

ولا يكون الاعتقاد بأن القرآن وحي من الله تعالى لنبيه وبالحقائق الأخروية فيه اعتقادًا ممكنًا بالعقل بل بالقلب.

والحقائق التي يأمر الإسلام بالإيمان بها من جانب آخر حقائق يقبلها العقل السليم من غير تردد؛ أي إن الإسلام لا يناقض العقل، بل هو حقيقة سامية تربي العقل وتجعله سليمًا، وإلا ضاع الإنسان في جهل الخسران الأبدي وحماقته؛ وهذا يعني أن العقول تعقل بالإسلام.

ويذكر القرآن والسُّنَّة أدلة مقنعة في موضوع التوحيد والنبوة والآخرة.

فيستفيد كل قلب لا ينطلق من حكمٍ مسبقٍ أو شبهةٍ قاتلةٍ أو وسوسةٍ شديدةٍ، من أدلة الإسلام وبراهينه الواضحة، فيرى الحقيقة البديهية الصافية ويؤمن بها.

لأن الإسلام يجيب عن أي سؤال قد يرد على خيال الإنسان وعقله، وينظِّم حياته على أفضل صورة.

والإسلام سرورُ المسلمين لا بل حتى الناس أجمعين وفرحهم وطمأنينتهم.

وما أجمل قول محمد عاكف أرصوي:

الإيمان جوهر ما أعظمه!....وقلب بلا إيمان على الصدر ما أثقله!

فالإيمان طمأنينة وسعادة. وغيابه ذلة وسفالة، وتحول القلب إلى خرابة، والإنكارُ بتجاهل بعض من الأسئلة مثل «لماذا خُلِقتُ؟ ولماذا خُلِقَ هذا الكون؟ وما الغاية من خلقي؟» إنما هو حماقة البقاء عبدًا لهوى النفس.

والإنكار إفلاس أبدي يضيِّع العمر الذي هو بضاعة الإنسان في سبيل رغبات فانية، وهو مفرٌّ يؤدي إلى نار جهنم، لأنه لا مفر ولا ملجأ ولا ملاذ إلا إلى الله تعالى.

وقد عرضَ القرآن الكريم لنا مشاهد من تاريخ الإنسان، ونبَّهنا نبينا الكريم ﷺ بأحاديث شريفة تعرض لنا مشاهد من أحوال الآخرة.

والقاسم المشترك بين الماضي والمستقبل هو: أن الإنسان حينما يكون في غنى ورفاه، ويبتعد عن القيم الدينية والمعنوية، ويقف عاجزًا أمام رغباته النفسانية، يتكبر ويُعرِض عن الإيمان، ويسلك طريق إنكار الخالق أو الدين أو الآخرة، ويسعى لإشباع الحاجة إلى الإيمان الموجودة في فطرته بالباطل أو بما يسميها أديانًا محرفة توافق أهواءه. كما أنه يصطنع ذرائع حسية بالتلاعب بالكلمات فيقول مثلًا: «دين آبائنا» أو «فلسفة حياتي» أو «أنا أؤمن كما أريد» أو «أنا مرتاح بإيماني هكذا». إلا أن الله تعالى قد ختمها جميعًا بختم «الإنكار».

إن الإيمان المقبول الإيمانُ الذي ارتضاه ربنا وعرَّفه بالوحي وبلَّغه بالرسل.

أما وضعُ الأفراد أو الرهبان أو المجمعات الكنسية أو المؤسسات المشابهة أسسًا ثم قولهم: «هذا ديننا» فليسَ إلا ثمرة الجنون.

وخير مثال لهذا المسيحيةُ اليوم التي تنقسم إلى مئات من الطوائف والفِرق.

فالله تعالى قد بيَّن أن الثالوث كُفر، وأن سيدنا عيسى عليه السلام ليس إلا عبد الله ورسوله.

واليهودية أيضًا حُرِّفَت على يد رجال الدين الضالين الحريصين على منافعهم، فصارت دينًا خاصًا بِعرق دون غيره، مع أن الله تعالى ربُّ الأعراق جميعًا.

لَمَّا تقدمت العلوم في الغرب، ابتعد كثير من العلماء عن المسيحية البعيدة عن العقلانية، فمال قسم منهم إلى الإلحاد ثورةً على هذا الدين المحرَّف. إلا أنه مَن أدركَ بقلبه أن لهذا الكون إلهًا، وأن للخلق غايةً، وجدوا أنفسهم مضطرين إلى رفض المسيحية المحرفة والإقرار بوجود خالق، ووجدوا لهذا الأمر غطاءً أو اسمًا وهو «الربوبية» التي كانت اعتقادًا باطلًا منذ عهد اليونانيين القدماء.

مع أن الربوبية التي تعتقد بوجود إله ولكنه لا يتدخل في شيء كُفرٌ واعتقاد مرفوض، مثلما أن المسيحية المحرفة بعيدة عن التوحيد.

وكان عليهم أن يتساءلوا التساؤل التالي:

إذا كانت المسيحية قد حُرِّفَت، أفلا يبعث الله تعالى نبيًّا وكتابًا؟

نعم، بعثَ، بعثَ نبيه محمدًا ﷺ بدين الإسلام والقرآن الكريم...

وقد رأى كثيرٌ من عقلاء أهل الكتاب هذه الحقيقة.

فسلمان الفارسي رضي الله عنه خرج من فارس طلبًا للحقيقة، فجلس مع الرهبان لسنوات، ووقعَ في الأسر وبيعَ عبدًا، حتى وصل إلى النبي محمد ﷺ.

وعبد الله بن سلام الذي كان حِبرًا يهوديًّا ما إنْ رأى نبينا محمدًا ﷺ حتى قال: «ما وجهه بوجه كذَّاب» وآمنَ به.

فالإسلام هو الدِّينُ الحقُ بالأمس واليوم وغدًا.

إنما الدِّين عند الله الإسلام.

والدِّين الذي بلَّغه سيدنا آدم وسيدنا نوح وسيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وسيدنا عيسى إنما هو الإسلام.

وقد تعرَّض العالَمَ الإسلامي عمومًا في القرون الأخيرة لهزات كبيرة في موضوع مكانة الدين في الحياة وتحصيل العلوم الدينية. إذ ادُّعيَ أن الدين عائق أمام التطور والتقدم، وزاد التقليد الأعمى للغرب، ووصلت إلى بلادنا سموم الإلحاد والربوبية الغربية التي تهاجم ديننا الحق، دين الإسلام.

أما في أوروبا فكانت التيارات الفلسفية الكثيرة آنذاك تهاجم الدين، فكانت المادية تنكر الروح والأمور المعنوية، ولا تقبل شيئًا غير المادة، وكانت التجريبية ترفض أي شيء لم يُثبَت بالتجربة، وكانت ترى أن العقل والعلم يجب أن يأخذا مكان الدين في المجتمع.

وأما **الداروينية** فكانت ترى بأن الإنسان تطور من الحيوان نتيجة مصادفة، فرأت الإنسان حيوانًا. وكانت الداروينية الاجتماعية التي أثرت في علم الاجتماع ترى الأديان مرحلة متأخرة من تطور المجتمعات.

وأما **الفرويدية** أو التحليل النفسي فكان مذهبًا ضالًّا يحاول أن يقيِّم نفسية الإنسان من زاوية الإشباع الجنسي.

## خدمات المسلمين في العلم

كان يُنظَر إلى الدين والعلم في أوروبا على أنهما أمرَان متناقضَان، لذلك كان الذي يطلب العلم ينأى عن الدين. ولكننا حينما نمعن النظر في التاريخ، نجد أن للمسلمين خدمات عظيمة في مجال العلم والاختراعات.

فعلم الجبر ورقم صفر مثلًا وضعه المسلمون ثم نقلوه إلى أوروبا.

وقاسَ أحمد بن موسى وإخوته طولَ خط الإستواء في عهد الخليفة العباسي المأمون (٧٨٦-٨٣٣) عبر حسابات أجروها في سنجان والكوفة، فقالوا إن طوله ٣٩ ألف كيلو متر مع نسبة خطأ تساوي ٥ ,٢ بالمئة.

وبرعَ الخوارزمي في الرياضيات، وجابر بن حيان في الكيمياء، وأبو العز إسماعيل الجزري في الميكانيك، والفرغاني والبتاني في الفلك، وابن سينا في الطب، وغيرهم من العلماء المسلمين الذين تركوا وراءهم اختراعات مهمة في العلوم.

وكان للمسلمين دورٌ في تأسيس علم الجغرافية. ويُعَدُّ كتاب أولياء شلبي (١٦١١-١٦٨٢) الذي زارَ بلدانًا كثيرة، وكتاب ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٦٩) الذي ساح في الأرض لـ٢٩ عامًا، كنزًا في التاريخ والجغرافية.

وذكرَ كريستوفر كولوبموس (١٤٤٦-١٥٠٦) أنه علِمَ بوجود أمريكا من المسلمين لا سيما من كتب ابن رشد.

وتحدث البيروني (٩٧٣-١٠٤٨) عن وجود أمريكا قبل قرون من كولومبوس. ورسمَ بيري ريِّس (١٤٦٥-١٥٥٤) خريطة لأوروبا في كتابه (كتاب البحرية). وتعد خريطة العالَم التي رسمها من الأمور التي لم يستطع علم التاريخ أن يحلها حتى اليوم. وتظهر جزيرة غرينلاند في الخريطة على ثلاثة أجزاء كما هي في الواقع، وهذه الحقيقة لم يستطع الإنسان أن يدركها إلا حينما صعد إلى القمر.

واستطاع الإدريسي (١١٠٠-١١٦٦) قبله بـ ٨٠٠ سنة أن يرسم خرائط مشابهة لخرائط العالَم في وقتنا.

ولا ننسى أن أكثر المستكشفين الغرب أمثال كريستوفر كولوبوس وماجلان وأمريكو فسبوتشي كانوا من القراصنة. والحق أن هؤلاء كانوا قطَّاع طرق ولصوص استعبدوا المظلومين في أفريقيا وأمريكا واستغلوهم وقتلوهم.

أما المستكشفون الحقيقيُّون فهم المستشكفون المسلمون مثل ابن بطوطة وأولياء شلبي، إذ كانوا ينقلون أخبار البلدان التي يزورونها على أفضل صورة.

ومن العلماء العرب ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦) الذي يُعَد عبقريًّا في فلسفة التاريخ، ومؤسس علم الاجتماع، واشتُهِر بمقدمته التي ما زالت مرجعًا لا يُستغنَى عنه.

ويؤسفنا أن نرى اليوم كُتَّابًا يتحدثون عن هذه العلوم في كتبهم ولا يذكرون أي عالم من علماء الإسلام ويحرصون على التركيز على اختراعات أهل الكفر، وإنما ذلك كله لِما يشعرون به من عقدة نقص أمام الغرب.

إن إنكار الغرب لجهود العلماء المسلمين جحود، وجهل الشرق بهم غفلةٌ ونتيجةٌ لعقدة النقص.

مع أن الغرب في تقدمهم مديونون للثراء العلمي الذي جاء به المسلمون. فقد عرفَ الغرب العلوم عبر الحضارة التي كانت في بغداد وأثناء الحملات الصليبية وفي جامعات الأندلس، ولم يتطوروا ويتقدموا إلا بعد ذلك.

ينسبُ أتباع الغرب اليوم استعمال الرياضيات في علوم الطبيعة لأول مرة لروجر بيكون (١٢١٩-١٢٩٢)، وينسبون علم البصريات و«الغرفة المظلمة» التي تعد أساس آلة التصوير للفي بين غيرسون (١٢٨٨-١٣٤٤)، مع أن ابن الهيثم (ت: ١٠٤١) كان الرائد في هذَين المجالَين.

وينسبون علم المثلثات لريغيومونتانوس (ت: ١٤٧٦) مع أنه علم أسسه نصر الدين الطوسي (ت: ١٢٧٤).

ويدَّعون أن كوبرنيكوس وكبلر هما أول مَن قالا إن الشمس ثابتة والأرض تدور، مع أن هذَين العالِمَين تأثرا بعلماء أندلسيين مثل العالِمِ الزرقالي الذي عاش في القرن الحادي عشر.

وثمة أمثلة كثيرة في العلوم الأخرى.

وقد كان الغرب متعصبًا أمام الحقائق العلمية من القرن السادس عشر الميلادي، حين بدأت تُنشَر الحقائق العلمية المتعلقة بعلم الفلك في أوروبا بفضل ترجمة كتب

العلماء المسلمين. فقد قال غاليليو إن الأرض تدور على عكس ما كانت تعتقد الكنيسة به. لذلك قبضت محاكم التفتيش عليه وطالبت بإعدامه. وظلَّ طوال عمره في السجن. فغيَّر غاليليو أقواله كي ينجو من العقوبة، ولم يستطع إلا أن يقول لصديقه وهو يخرج من باب المحكمة: «ومع ذلك هي تدور».

لذلك لا سبب يجعل المسلمين يشعرون بعقدة النقص في موضوع التقدم العلمي.

ولنا أن نعلم أن توماس أكويناس وباسكال وديكارت وديفيد هيوم وهم مفكرون أوربيون عظماء قد استفادوا من كتب الإمام الغزالي.

انتشرت التيارات الباطلة في كل مكان في السنوات الأخيرة التي أُنسيَت فيها هذه الحقائق، وذلك باستعمال الإنترنت الذي دخل كل بيت وكل هاتف محمول. وتعرض إيمان المسلمين في ظل هذه المعمعة لهجوم أعداء الإسلام، ومن هذه الهجمات «الربوبية».

## الربوبية

إن الربوبية علامة من علامات الجاهلية، فبعض العرب في عصر الجاهلية كانوا يقولون:

«هناك إله خلقَ الإنسان والأرض والسماء والكون وهو ينزل المطر، ولكنه لم يبعث نبيًا ولا أنزل كتابًا ولا أمرَ بشريعة. إننا لن نُبعَث ولن نُعذَّب». فكانوا يعبدون الله والأصنام معًا.

ولم يُعجَب الكفار بما ورد في آيات القرآن عمَّا بعد الموت والآخرة وما لا تهواه أنفسهم، فطلبوا من نبينا محمد ﷺ أن يبدِّل تلك الآيات، إذ قالوا:

«اِيتِ بقرآن ليس فيه ذكر البعث والنشور وليس فيه عيب آلهتنا».[٩]

وقالوا: «ائت بقرآن ليس فيه ترك عبادة اللات والعزى».[١٠]

فنزل قول الله تعالى:

---

٩. الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ٣، ١١.

١٠. الواحدي، أسباب النزول، ص٢٦٤.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[11]

فنفهم مما ذكرنا أن الربوبية الباطلة تدعي أنها تقبل وجود خالق، ولكن ما تؤمن به حقيقةً ليس الله الموجود، بل تؤمن بإله خيالي مجسَّم ليس له وجود في الحقيقة. وليس هذا إلا إنكارًا لله ولأوامره ورسله وكتبه والقيامة والآخرة.

إن إنكار الله سبحانه وتعالى حماقة كحماقة إنكار وجود الشمس المشعة في رائعة النهار. والإنكار الذي يُسمَّى ربوبيةً يدَّعي بأنه لا ينكر الخالق ظاهرًا، ولكنه ينكر أنه تعالى رب، أي ربٌّ يأمر عباده وينهاهم ويزكِّيهم ويكافئهم ويعاقبهم. وليس هذا إلا تصور لصنم جامد أو إله خيالي يتلاعب به المرء كيفما يشاء، ويوجِّهه وفقًا لرغباته وأهوائه. فالربوبية ترى أنه هناك إله عزيز قادر خلق العوالِم في هذا الكون الواسع ووضعَ لها نظامًا دقيقًا من ناحية، ومن ناحية أخرى تراه صنمًا ترك كل شيء لعباده ومخلوقاته. ولو كان هذا حقًّا، فهل كان ليبقى شيء في هذا الكون؟

إن ما تتصوره الربوبية إلهٌ خياليٌّ وصنمٌ لا أمر له، صنمٌ عاجزٌ عن رفع أي ظلم، صنمٌ لا يعرف الحق والعدل، صنمٌ لا يوصي بحسن الأخلاق، صنمٌ لا يرحم المظلومين والضعفاء، أي صنمٌ ظالم يتجاهل المظلومين ولا يعبأ بالظالمين. إنه ثمرة مخيلة عقيمة!

وليس لمثل هذا الاعتقاد جانب منطقي، وإنما هو خسوف العقل.

كانت في اليونان الوثنيةِ ربوبيةٌ ولدت من فكرة ضرورة وجود «محرك أول» لهذا الكون انطلاقًا من ضرورة عقلية. فكانوا يُطمئنون نفوسهم بالإيمان بخالق مُجبَرين على الاعتراف به يوافق فكرة الآلهة وعقولهم المتحجرة.

وظهرت فكرة مشابهة في العصور الأخيرة في العالَم المسيحي. إذ لَمَّا غُلِبَت المسيحية المُحرَّفة تمامًا أمام العقل والعلم، رُفِضَت الكنيسة والبابوية وغيرها مما يتعلق بهذا الدين المحرَّف.

---

١١. يونس: ١٥.

ومن المعلوم أن المسيحية كانت نتاجًا بشريًا بالتمام، وضعَ أساسها بولس الذي لم يكن نبيًّا، وأسَّست عقائدها المجامع بضغط من الملك. وحتى الأعياد التي يحتفل بها المسيحية مثل عيد الميلاد ما هي إلا عادات للهو أُدخِلَت لاحقًا في المسيحية. ومن الأمثلة التي تبيِّن حقيقة هذا الدين اجتماع الكاردينالات قبل سنوات ليعطوا البابا الذي ماتَ نصيبه من «الجنة»!

فمثل هذا الدين لا يطمئن القلب ولا يقنع العقل ولا يريح الضمير. لذلك ظهرَت الربوبية في الغرب فكرةً ترفض الخرافات التي وضعتها الكنيسة ورجال الدين ولكنها تقبل بوجود إله.

**ثمة آخرة!**

إن العصر الذي نعيش فيه عصر جاهلية من حيث ما نراه من تيارات فكرية. وأول علامة تدل على أن العصر عصر جاهلية إنما هي إنكار الآخرة.

لأن نتيجةَ اتباع أهواء النفس الظلمُ وضياع الحق والأنانية والبخل والكبر والبغي والطغيان. وهذا كله يعني ذنوبًا يرتكبها العبد أمام خالقه.

والإيمان بوجود يوم يُحاسَب فيه المرء على كل ذلك يحثُّه على أن يتحلى بالعدل وحسن الخلق، ويراعي الحقوق، أي يكون على تقوى.

لكن هذا الإيمان يهزُّ كيانَ الذين يتبعون أهواءهم.

وقد رُوِيَ أن جماعةً من الناس في بلد إسلامي شكوا حين رأوا آية ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾[١٢] في مدخل مقبرة، فقالوا:

«أبعِدُوا هذه اللوحة من هنا فهي كلما مررنا من هنا، تبعث في نفوسنا التشاؤم».

وهذا هو السبب من جعل المقابر في المدن الحديثة بعيدة عنها.

فلا محل للإيمان بالآخرة في دنيا الجاهلية التي تحث عليها التيارات الفكرية مثل الإلحاد والربوبية والعلمانية. لا محل للرحمة والضمير والإنسانية. في هذه التيارات الظلم والقسوة والوحشية. وهذا ما رأيناه طوال التاريخ في الأندلس

١٢. العنكبوت: ٥٧.

وفي الحروب الصليبية، وفي القفقاس، وبوسنة، والعراق، واليوم نراه في سوريا واليمن وميانمار.

لقد كان لأوائل الذين خاطبهم دين الإسلام مفر من العذاب في الآخرة.

فأولى السور التي نزلت في القرآن الكريم حذَّرت مشركي مكة بصور ومشاهد رهيبة من القيامة والآخرة.

وقد وصفَ المشركون حقيقةَ البعث بعد الموت بقولهم: «النبأ العظيم»، وراحوا يتساءلون فيما بينهم: «وماذا إنْ كان هناك آخرة وحساب؟ وماذا إنْ بُعِثنا؟» وقد بيَّنَ الله تعالى أحوالهم هذه بقوله:

**﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾** [١٣]

وما زال هناك مفر اليوم في الحياة الدنيا من عذاب الآخرة لأولئك الذين يتخبَّطون في دوامة أهوائهم النفسانية في عصر الجاهلية المعاصر، ولكن هيهات هيهات!

**﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ. كَلَّا لَا وَزَرَ﴾** [١٤]

وينبغي ألا ننسى أن البشر منذ القديم انشغلت عقولهم بقضية الموت على الرغم من بعث الأنبياء، فهذه القضية التي كانت دائمًا رابضة في الأذهان وتقض المضاجع لطالما أراد الإنسان أن يتخلص منها. لكن عندما صارت واقعة الموت التي تلف حول كل إنسان خوفًا وقلقًا لا بد أن يقع، صار الاعتياد عليها وتحسين صورتها أولى غايات الإنسان.

إن حياة القبر والآخرة التي لا يمكن أن يدركها الإنسان بعقله لا تتضح إلا بالكتاب والسنة. فخبر الغيب هذا الذي جاء به الأنبياء جميعًا لا سيما نبينا محمد ﷺ لا بد أن يُستقبَل بالشكر والحمد والمنة، وما أشدها من غفلة أن يتجاهل الإنسان هذا الخبر كما يفعل الملحدون والربوبيُّون!

ولولا الآخرة، لكان المجيء إلى الدنيا ودخول مدرستها عبثًا.

فلا بد من طرح الأسئلة التالية بعقل سليم:

---

١٣. النبأ: ١-٣.

١٤. القيامة: ١٠-١١.

- لماذا يأتي القادمون إلى الدنيا؟
- في مُلْكِ مَن نعيش؟
- مَن الذي أكرمَ الإنسان بهذه المخلوقات كلها؟ ولماذا؟
- إلى أين المصير؟
- إلى أين المسير؟

لما علمت هند في الجاهلية أن هذا الدين يساوي بين الأسياد والعبيد، حارَت وعارضت هذا العدل وقالت: «ما هذا الدين؟ هل أكون مثل عبد من العبيد؟»

### لا دِين بلا أحكام!

إن الربوبية على اختلاف طرقها وكثرة أنواعها لها هدف واحد وهو دينٌ بلا أحكام ولا شريعة ولا فقه، أي دين ليس فيه حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي. فهو كمَن يقول:

«ليكن الدين كما أريد! ولا يتدخل برغباتي وأهوائي ونزواتي».

مع أن الله تعالى قد وضع للناس شريعة مثلما وضع للكون نظامًا.

يقول الله تعالى:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾[١٥]

إن الغاية من الخلق العبودية لله تعالى. وهذه الدنيا مدرسة امتحان ليُعلَم إنْ كان العبد قد عاش في سبيل هذه الغاية. فالكسلة من الطلاب في المدرسة لا يحبون الامتحانات ولا الواجبات، لكن بدونها لا تتحقق الغاية والمقصود من المدرسة.

أما المجتهدون من الطلاب فيدركون الغاية المرجوة من تحصيلهم العلم، ويحبون امتحاناتهم وواجباتهم، ويؤدونها باجتهاد ومحبة.

والظالمون لا يحبون العدل، والقاسية قلوبهم لا يحبون الرحمة.

أما الرحماء يشعرون بالرضا بقواعد الأمن والعدل، لا بل يسعون لإقامة هذه القواعد.

---

١٥. الرحمن: ٧-٨.

لأن البلدان التي ما عادت تُزرَع فيها بذور الرحمة وتئن تحت سياط الظلم صارت بلدان أسى ومأتم، وهذا ما نراه اليوم في البلدان التي ترزح تحت وطأة الرأسمالية مثل سوريا والعراق واليمن وميانمار وفلسطين، ذلك أن الرحمة اجتُثَّت من جذورها في العالَم الرأسمالي، وعمَّت فيه وحشية رهيبة.

إن الإنسان الذي لا يعرف الرحمة أضاعَ المفتاح الذي يفتح له باب السعادة وأكبر الخزائن وأعظمها. فالرحمة كالشعلة المضيئة التي لا تنطفئ في قلب المسلم. والخصلة التي تميِّز المسلم عن غيره أنه أشد رحمة. أما الكفَّار فلا رحمة في قلوبهم.

إن الرحمة دُرَّة ربَّانية تشهد على إنسانيِّتنا وتقرِّب قلوبنا من رضا الله تعالى.

والدرس الأول الذي نتعلمه من الصيام درسُ الرحمة، فالصيام يفتح عيون قلوبنا التي عميَت بانعدام الرحمة.

وينبغي أن يكون كل مكان تُدرَّس العلوم الدينية فيه مدرسةَ رحمة، فإذا دخلت الأنانية محل المحبة في جدران تلك المدرسة، جفَّت بذور الرحمة فيها.

لذلك قال الله تعالى في كتابه العزيز مبينًا أنه لا مخلوق خُلِق بلا غاية ولا مقصد:

**﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾** [١٦]

**﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾** [١٧]

إن الدنيا مليئة بالسيئات والشرور. تخيَّلوا ماذا سيحدث لو أن قاتلًا تُرِك ليفعل ما يشاء!

تخيَّلوا ماذا سيصنع ذئب وحشي وسط خِراف!

والإنسان في هذه الدنيا كثيرًا ما لا يراعي الحقوق، فلا يتخيَّلنَّ أحدنا أن تكون الدنيا بلا حساب ومحاكمة.

إن الاعتقاد أن هذا الكون العظيم والإنسان الذي خُلِق في أحسن تقويم سيُترَك سدى، اعتقاد ليس فيه أي منطق، بل هو دليل على إبطال العقل. وخير مثال لهذا الأمر وجود السجون المليئة دائمًا في أكثر الأنظمة التي تدعي الحرية والديمقراطية.

---

١٦. القيامة: ٣٦.

١٧. المؤمنون: ١١٥.

ولو كان الدين وفقًا للعقل، لظهرت أديان على عدد العقول، فما اكترث أحد بغيره، ولصار كل واحد يسعى لدحض أفكار الآخرين.

وهذا هو السبب وراء تكذيب الفلاسفة بعضهم بعضًا، فعقول الفلاسفة الناقصة في اليونان القديمة مثلًا أوجدت آلهة كثيرة، لا بل جعلت بين هذه الآلهة قرابة. وهؤلاء الفلاسفة رأوا بعقولهم الناسَ قطعانًا فجعلوهم عبيدًا، وساقوهم إلى الهلاك، وبقيت كتبهم لا سيما كتب أرسطو حبيسة الرفوف المغبرَّة، فما استناروا ولا أناروا دروب غيرهم.

ونجد على الطرف الآخر الأنبياء الذين كان يصدِّق بعضهم بعضًا، وزرعوا الطمأنينة والسكينة في المجتمع.

إننا نجد اليوم «ثقافة العولمة» تجتاح العالَم الإسلامي كاجتياح العدو الغاشم، فنرى الإعلانات التي تحث على الإسراف، وبرامج التلفاز السيئة، ومواقع الإنترنت المشبوهة، كلها تؤجج نار الأهواء النفسانية، فيصحبها انحلال أخلاقي ومعنوي، وتضطرب عقول الناس وقلوبهم.

وتختلط الغاية بالوسيلة، وتمسي الحياة أكلًا وشربًا للمتعة، وتبيت القلوب أسيرة الدنيا والنفوس في طوع الشهوات.

إن الإنسان اليوم يُلقَّن أفكارًا بعيدة عن مخاوف الآخرة، وينأى عن الدين والإيمان شيئًا فشيئًا بتعليمات المادية الغربية التي تحاول أن تحرم العالَم الإسلامي من قيمه، ولا يُعرَف الإسلام ولا يُعلَّم كما ينبغي.

وأودُّ هنا أن أنقل حادثة جرت قبل عشرين أو ثلاثين سنة في إسطنبول:

زار الأمين العام للحزم الشيوعي الفرنسي روجيه غارودي إسطنبول، وكانت له محاضرة في قصر يلدز. فسُئِلَ يومئذ:

– لقد كنتَ شيوعيًّا يومًا، حتى إنك كنت تحفظ أفكار ماركس كلها، أما اليوم فأنت مسلم. وسؤالي هو: لماذا كنتَ مسيحيًّا كاثوليكيًّا، ولماذا كنت شيوعيًّا؟ ولماذا أصبحتَ مسلمًا اليوم؟.

فقال:

(كنتُ كاثوليكيًّا، وذهبت إلى أمريكا طلبًا للعلم. فرأيت أن الشركات الاحتكارية آنذاك تحرق أطناطًا كثيرة من القمح، وتفسد أطنانًا من الحليب، وكل ذلك من أجل أن تحتكر السوق كلها. فشعرت بالثورة في داخلي من هذا الظلم وانعدام الرحمة، فحملتني هذه الثورة إلى الشيوعية.

ثم وجدت أن الشيوعية بلا روح. ثم أُلقي القبض عليَّ، وأُمِر بإطلاق الرصاص عليَّ، غير أن الجندي المكلف بذلك غضَّ بصره عني، فهربت.

ولمَّا كنتُ مهتمًا بعلم الاجتماع، تساءلت لماذا لم يطلق هذا الجندي الرصاص عليَّ، فبحث ووجدته، وسألته:

«لماذا تركتني وقد أُمِرتَ بإطلاق الرصاص عليَّ؟»

فأجابني قائلًا:

«أنا مسلم، ولا أعلم ماذا فعلتَ. ولا أعلم لماذا كانوا سيعدمونك. فلم أرغب أن أكون أداة في قتلك، لذلك غضضت بصري عنك، فهربت».

وكنتُ إلى ذلك الوقت أظن أن الإسلام دين عشيرة. فبحثت في هذا الدين، وبدأت بالاقتصاد لأنني درستُ هذا العلم.

وبحثت في موضوع الربا، لأن الربا كان ممنوعًا في الشيوعية، وكان نظام استغلال. فأردت أن أعرف رأي الإسلام في الربا. وشعرت براحة حين قرأت حديث الصحابي بلال ﵁. إذ جاء بلال إلى النبي ﷺ بتمر برني [من أجود أنواع التمر]، فقال له النبي ﷺ: «**من أين هذا؟**»، قال بلال: كان عندنا تمر ردي، فبعت منه صاعين بصاع، لنطعم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ عند ذلك:

«**أوه أوه، عين الربا عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فبع التمر ببيع آخر، ثم اشتره**».[١٨]

فوجدت أن رسول الله محمدًا ﷺ لا يتهاون أبدًا في موضوع الربا، فجعلني هذا الحديث أدقِّق في دين الإسلام كاملًا.

وعلمتُ أن أبا حنيفة من أعظم الفقهاء، فأسعدني ذلك وأنار دربي.

١٨. البخاري، الوكالة، ١١/ ٢٣١٢.

ولكن لا بد أن أذكر هنا أنه ليس هناك فقيه أو حقوقي مثل أبي حنيفة اليوم في العالَم الإسلامي مع الأسف. إنني أعلِّم عقلية أبي حنيفة الحقوقية، مع أنني أسلمتُ حديثًا.

إنكم سليمون ولكنكم تظنون أنفسكم مرضى. إنكم تقلِّدون الغرب المريض. فهل من المنطق أن يقلِّد السليمُ المريض؟».

هذا يعني أنه علينا أولًا أن نكون واعين بقيمنا. علينا أن نعلم قيمة مقدَّساتنا. وإلا لم يكن هناك فرق- والعياذ بالله- بيننا وبين التعساء الذين يموتون فوق كنوز!

والحق أن الغرب اليوم مريض، فهو يبيح كل حرام باسم النفعية وبرفع شعار: «دعه يعمل، دعه يمر». والمسيحية لا تُشبِع الروح، لأنها هي نفسها فارغة. وقد تلقت المسيحية الضربة الأولى من بولس، فهو قد أبطل الشريعة، إذ قال:

«آمنوا بالتثليث أي الأب والابن والروح القُدُس، واتركوا الباقي».

وقال:

«لقد رُفعِت عنكم الأحكام التي في التوراة! والأحكام والتشريع من عمل القيصر».

أي: «عِشْوا براحة كما تشاؤون، وسيضع الملوك الأحكام الدنيوية لكم».

وهذا كان لصالح الملوك، ثم توالى عقد المجامع الكنسية. فوضعت هذه المجامع عقائد المسيحية وفقًا لأهوائها، أي كانت هذه العقائد من وضع البشر.

فقد أقرَّ مجمع نيقية الأول عام ٣٢٥م أن سيدنا عيسى رب.

وأقرَّ مجمع إسطنبول عام ٣٨١م أن الروح القدس رب أيضًا.

ومنح مجمع أفَسس عام ٤٣١م السيدة مريم صفة «والدة الرب». وأقرَّ أن سيدنا عيسى له صفتان: بشرية وإلهية.

وأعلنَ مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م بطلان ادعاء الكنائس الشرقية (الأقباط والأرمن والسريان والأحباش) بأن عيسى عليه السلام له طبيعة واحدة، وهي صفة الربوبية.

وأقرَّ مجمع نيقية الثاني عام ٧٨٧م أن الأيقونات (التصاوير الدينية) ليست إثمًا، مع أنه كان ثمة خلاف حول هذه الأيقونات على مدى ٢٠٠ عامًا، حتى إن الإمبراطور كان يحرِّمها أحيانًا.

أقر المسيحيون الأرثوذكس بالمجامع السبعة الأولى. أما المسيحيون الكاثوليك فيقرُّون بـ٢١ مجمعًا كان آخرها عام ١٩٦٥م. وقد دعا الفاتيكان في آخر مجمع لـ«الحوار» بين الأديان والمذاهب.

وخلاصة الكلام أن عقائد المسيحية اليوم وضعتها المجامع، وأُلغيَت الشريعة من هذا الدين، وفُرِّغ محتواه. وجاءت الكنيسة بصكوك الغفران مقابل المنفعة المادية، فصار الإنسان قادرًا على غفران ذنوب إنسان آخر مثله!

ونجد على الجانب الآخر الإسلام وقد حافظ على كل شيء فيه، فالقرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على رسوله الكريم باقٍ إلى يومنا هذا من غير أي تحريف ولو كان صغيرًا.

والسُّنَّة الشريفة التي تعد أقوال النبي ﷺ وأفعاله بين أيدينا بفضل دراسات وأبحاث دقيقة.

وما زالت فتاوى الصحابة الكرام من أول عهد الإسلام والمذاهب التي وضعها طلبتهم قائمة إلى يومنا هذا.

ولكننا نجد مَن يفتري على الإسلام أمام هذه الحقائق فيقول:

- إن الإسلام يحتاج إلى حركة إصلاح.
- ولا حاجة للمذاهب الإسلامية.
- وأكثر الأحاديث الشريفة أو كلها لا أصل لها.
- وأنه ثمة آيات خاصة «بمكان وزمان» فلا داعي لتطبيقها اليوم.

هناك محاولات لتحريف الإسلام مثل المسيحية بحجة الإصلاح، مع أن الإسلام قد تكفل الله بحفظه إلى قيام الساعة لأنه الدين الحق. وقد بيَّن رسول الله ﷺ هذه الحقيقة التي نصفها بأنها حدود أهل السنة والجماعة، إذ قال:

**«لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»** [١٩]

إن الإسلام هو الدين الحق الوحيد، وهو دين كامل، والكامل لا حاجة له لما دونه. أي إن الإسلام لا يحتاج إلى شيء من النظم البشرية أو الأديان المحرفة.

---

١٩. مسلم، الإيمان، ٢٤٧/ ١٥٦؛ الإمارة، ١٧٣/ ١٩٢٣.

ونرى مع الأسف غفلة البسطاء من الناس على أيدي الذين يتكلمون في أمور الدين على أهوائهم وينشرون الضلالات والانحرافات مستغلين جهل المجتمع في الأمور الدينية، والذين يحاولون زرع الشكوك في ثوابت الإسلام، والذين يسوِّقون لأفكار المستشرقين بدعوى أنها أفكارهم.

فماذا سيبقى للمسلم إذا لم يتَّبع مذهبًا ولم يعتقد بصحة الأحاديث الشريفة ولم يُقِر بتطبيق القرآن في هذا الزمان؟ لا شك أن تيارات الإنكار مثل الربوبية تبقى، وهي ليست إلا مكائد تخرِّب أركان الإسلام.

فواجبنا أن نبيِّن أن الربوبية لن تكون عقيدة مقبولة أبدًا، وأن هذا التيار الغريب عنا الناتج عن جهل لا فرق بينه وبين أنواع الإنكار الأخرى والشرك والإلحاد.

وواجبنا أيضًا أن نوضِّح لإخواننا أهمية الإيمان، وأن نحميه من تيارات الكفر والعصيان بعيش ما نؤمن به، واجتناب الحرام، وإتيان الأعمال الصالحة والتحلي بالتقوى والاستقامة، ومعية الصادقين والصالحين، لأنه مَن لم يعش كما يؤمن، بات يؤمن كما يعيش، ولأنه كما قال الإمام الشافعي:

«إذا لم تشغل نفسك بالحق، شغلتك بالباطل».

وأكثر هراء الشباب اليوم كقولهم: «أنا ربوبي، أنا حضاري» ليس إلا هوسًا قاتلًا وتقليدًا أعمى للآخرين.

ويؤسفنا أن نرى اليوم الحياة الجامعية لطلابنا قد أمست أوساطًا ملائمة لتكاثر مثل هذه الجراثيم، فلا بد أن نسأل أنفسنا من جديد: «ما العلم الحقيقي؟»

والآباء والأمهات اليوم يرسلون بأنفسهم أولادهم إلى مثل هذه الأوساط المليئة بالجراثيم.

وثمة اليوم أخطار محدقة في الحياة الجامعية، منها: العيش في غفلة وضلال وفقًا لأهواء النفوس، والاختلاط بين الذكور والإناث، والانحرافات الفكرية والعملية، وضياع الشخصية.

فلا بد من حماية القلب من هذه الأخطار.

فالصحبة الظاهرة للفاسقين والغافلين كما يقول الإمام الغزالي تمسي صحبة ذهنية مع مرور الوقت، وهذه الصحبة الذهنية تمسي صحبة بالقلب. وهذا يعني انجرار المرء إلى الهلاك شيئًا فشيئًا، لذلك كانت زوج النبي نوح عليه السلام وزوج النبي لوط عليه السلام من أهل النار.

عندما مرَّ النبي ﷺ وصحابته من أرض ثمود، حذَّرهم قائلًا:

«**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم مثل ما أصابهم**» وأمرهم ألا يأخذوا من مائها.[٢٠]

ولنتفكر هنا بحال أهلينا الذين يشاهدون منشورات أهل الكفر ويتعرضون لحملاتهم على الشاشات والهواتف والشوارع صباح مساء.

إذا لم نبذل جهدًا في التعليم والتربية والتدريس، وتركنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صار أولادنا لعبة بأيدي غيرنا. وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أن الشيطان يشارك الإنسان في أولاده، فولادة الولد لا تعني شيئًا للأب والأم إنْ كان الشيطان يُرضِعه وأهل الكفر يُغذُّونه وأهل العصيان يُربُّونه. فلا مناص لنا من الانتباه إلى مثل هذه الأمور.

- علينا في موضوع التعليم الديني أن نقدم لأولادنا العلم الديني الصحيح لنقيهم من الأفكار المنحرفة التي يأتينا بها المستشرقون ومُدَّعو الحداثة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال:

«**يا ابن عمر دينك دينك، إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا**».[٢١]

٢٠. البخاري، الأنبياء، ١٧/ ٣٣٨٠؛ مسلم، الزهد، ٣٩/ ٢٩٨٠.

٢١. الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، المدينة المنورة، المكتبة العلمية، ص١٢١.

## ثلاث فتن

ثمة اليوم ثلاث فتن أمام التعليم الإسلامي:

• **أولها**: أنه هناك سعي لجعل كل مسلم مجتهدًا لنفسه، عبر عدِّ الاجتهادات والمذاهب غير ضرورية. لذلك نجد كثيرًا ممن يسلكون طريقًا خاصًّا بهم- وأكثرهم جاهلون- فيقول الواحد منهم: «برأيي...». وإنما هذا يعني- والعياذ بالله- ضياع الدين.

مع أن المذاهب هي مدارس فقهية تجمع أصح آراء الصحابة ومَن جاء بعدهم من العلماء المجتهدين، واختيار مذهب أمر ضروري، وليس من الجائز تركها جميعًا، لأنها جميعًا مبينة على القرآن والسُّنَّة.

• **وثانيها**: أنه هناك سعي لإلقاء الشُّبهَة في السُّنَّة المطهَّرة، وذلك بادعاء الدفاع عن القرآن. مع أن القرآن الكريم نزل على قلب النبي ﷺ. وتبليغ القرآن وبيانه وتعليمه من مهام النبي ﷺ. وأصح تفسير للقرآن سنة النبي، فهي الجانب العملي من القرآن، وليست شيئًا منفصلًا، ولا شيئًا غريبًا عنه.

والكتاب والسُّنَّة شريَانا الإسلام، والدليلان الأساسيان له.

• **وثالثها**: أنه ثمة أحكام للقرآن وضعها الله تعالى لنا، وهناك مَن يسعى لتعطيل ما تجد النفس صعوبةً في تطبيقها، بادعاء أنها لا تنطبق على هذا الزمان، فهي بالية. وليس هذا إلا كجدال إبليس مع ربه. فقد أمر الله تعالى الملائكة حين خلق آدم أن: (اسجدوا لآدم). ولم تكن سجدة عبادة بل سجدة احترام. فتكبَّر إبليس، وحسد آدم فلم يسجد له، واعترض على أمر ربه. ولمَّا سُئِل عن عدم سجوده، لم يقل: «اتبعتُ هوى نفسي، فاغفر لي يا رب»، بل قاس قياسًا خاطئًا وحاول أن يأتي بحجة عقلية فقال:

﴿...**أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾[٢٢]

مع أن الله تعالى لم يسأله: «مَن الخير منكما؟ أنت أم آدم؟» بل أمره أن يسجد لآدم.

فكان إبليس أول مَن جادل ربه، فطرده الله تعالى فكان من الخاسرين.[٢٣]

فهذا مثال صريح لمَن يدَّعون أن أحكام الله لا تُطبَّق في كل زمان...

---

٢٢. الأعراف: ١٢.

٢٣. انظر: الأعراف: ١٢-١٣؛ ص: ٧١-٧٨.

لقد أكرم الله تعالى البشر بالقرآن الكريم هديًا لهم حتى قيام الساعة. ولن يرسل رسولًا ولن ينزل كتابًا حتى قيام الساعة. وادعاء أن في هذا الكتاب المبين أحكامًا تنتهي مدة صلاحيتها- والعياذ بالله- إنما هو افتراء شنيع على الله تعالى، وحماقة تنبع من عقول ضحلة.

ويؤسفنا أن نرى اليوم الطلبة في علوم الشريعة تُملَى عليهم آراء المستشرقين مثل كايتاني وغولدتسيهر وادعاءاتهم التي لا أصل لها باسم العلم وباسم المعرفة. وإنما ذلك إفساد لحياة الطلاب الروحانية، وينبغي لمَن يعلمونهم هذه الآراء أن يعلموا بأنهم سيُسألون ويُحاسبون على ذلك.

فالفتن الثلاثة التي ذكرناها هي:

- رفض المذاهب.
- وإنكار السُّنَّة.
- وإبطال الأحكام.

وظهور هذه الفتن يزيد من النظر إلى علوم الدين بعين الشبهة، ويدفع الأجيال- مع الأسف- نحو الربوبية عمدًا.

والحل لهذا الأمر معرفة الصواب.

فالأجيال التي تتعلم الصواب والحق لن تشرب من السموم التي يزيِّنها المستشرقون والأعداء من غير المسلمين.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«عليك أن تصلح نفسك قبل أن تقرأ آيات القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم. فإنْ كنتَ لا تشم الروائح العطرة في بستان الورود، فلا تلومنَّ البستان، بل قلبك وأنفك!».

لا بد اليوم من نيل العلم الصحيح من أجل تعليم القيم الإسلامية بمعناها الحقيقي. فلا يكفي طلابَنا معاهدُ القرآن الصيفية.

لقد علَّم النبي ﷺ أصحابَه الإسلام على مدى ٢٣ عامًا، فلا بد من معرفة أن طلب العلم الديني يستمر طوال الحياة، ولا بد من طلبه من أهل التقوى.

ونجد المسلم الذي تعلَّم دينه في معاهد الصيف في طفولته ومن مادة التربية الدينية التي لا تتجاوز الساعة أسبوعيًا يقع في التردد والشبهة حين يسمع النقاشات والجدال في أمور الدين على التلفاز وغيره من الوسائل. وإذا كانت أهواء النفس تذكي نار الشبهة، فإنه يردُّ الدين جملةً وتفصيلًا.

إن فكر الجاهلية القادم من الغرب مُسلَّطٌ على كل مجال...

ولا مجال لليأس. والحل إنما هو التبليغ كما بلَّغَ نبينا الكريم ﷺ. وعلى كل مسلم أن يسعى على قدر طاقته. ولا يجوز لَمن عنده علم يستطيع به أن يبلِّغ الإسلام أن ينزوي ويعتزل.

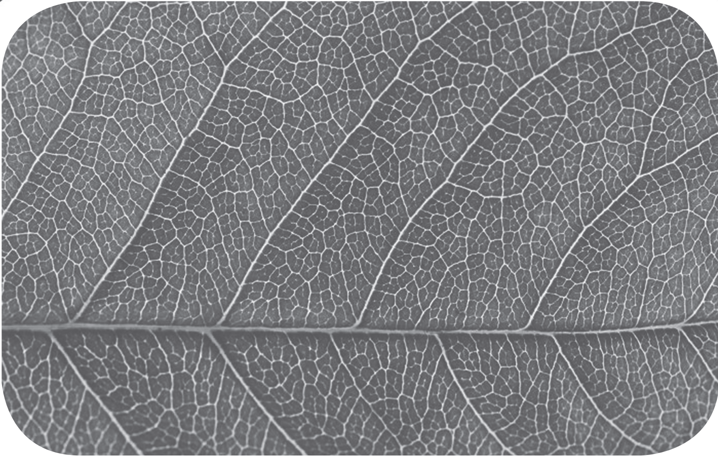
وإذا كنا في هذه الشدة من الجاهلية، ولا تمتلأ المقاعد في بعض من معاهد تعليم القرآن، فهذا يعني أننا لا نعمل كما ينبغي.

- علينا أن نذكِّر الناس أن العيش إنما عيش الآخرة.
- علينا أن نبيِّن لهم أن كل ما نعمله محاسبون عليه.
- علينا أن نشرح لهم أن الغاية من خلقنا معرفة ربنا والعبودية له.
- علينا أن ننصر دين الله بعيشه وجعل الآخرين يعيشونه. وقد بشَّرنا الله تعالى بنصره لحظة خروج أنفاسنا الأخيرة.

فاللهم أعِنَّا واستعملنا في خدمة دينك المبين!

آمين!





# هل من الممكن ألا نؤمن؟!



يقول الشيخ سعدي الشيرازي:

«يرى العاقل في كل ورقة شجر فيضًا من معرفة الله، أما الجاهل فلا يرى حتى ورقةً في الأشجار كلها».

# هل من الممكن ألا نؤمن؟!

إن الدنيا مدرسة للتفكر، يجد المرء فيها «معرفة الله»، ومعلِّم هذه المدرسة نبينا الكريم محمد ﷺ.

وأول أمر نزل في القرآن الكريم:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [٢٤]

لقد جعل الله تعالى كل شيء في الأرض والسماء والإنسان والعالَم دليلًا على وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته، ووسيلةً للتفكر والتدبر.

ولا ترى القلوب البصيرة الواعية في هذا الكون إلا تجليات قدرة الله وعظمته.

فوا أسفاه على الذي لا يتأمل جمال الورود وعذوبة صوت البلابل، ولا يفهم لسان حالها.

ووا أسفاه على الذي يغفل عن تجليات اسمَي الله «البارئ» و«المصور»، وعلى القلوب المتحجرة التي لا تدرك شيئًا من صمت الرياح والجداول والجبال.

لا بد من إدراك أن سبب الميل إلى تيارات الإنكار كالربوبية وغيرها في مرحلة الشباب إنما هو الحملات الدعائية السيئة. وقد قال علماء الماتريدية: «على منَ لم يصله كتاب أو نبي أن يعتقد بوجود الله ووحدانيته».

أي إن الكون مدرسة للتفكر... ومختبر للإيمان. فلا بد من ضياع العقل حتى لا يؤمن المرء. لا بد من أن يكون أحمقَ. لا بد أن يكون أعمى. لا بد أن يكون قد ألغى عقله.

---

٢٤. العلق: ١.

والذي ينظر إلى خضرة الربيع في ضوء النهار، يقول أمام الألوان الزاهية المختلفة أمام عينَيه: «لا أرى إلا خضرة» فلا ينتبه إلى الضوء الذي يكون وسيلة له ليرى الخضرة. مع أنه يرى جميع الألوان بهذا الضوء. فالضوء هنا مخفي لشدة وضوحه.

وقد قال ولي من أولياء الله:

«الله تعالى ليس بغائب في الحقيقة، لكنه غائب لشدة ظهوره أمام إدراكنا وطاقتنا البشرية».

والله تعالى «باطن» لسِرِّ الامتحان الذي نخضع له. ولو أنه أظهر علامات واضحة، لما كان الإيمان امتحانًا، ولصارَ معلومة يقينية قطعية.

لكن الله تعالى «ظاهر» في الوقت نفسه لأن كل شيء في الكون يشهد على أنه الخالق وعلى بديع صنعه وعظمة خلقه.

وهذا الظهور واضح تمامًا من حيث صفات الله تعالى، وكلُّ مخلوق دليلٌ واضحٌ على هذا الأمر.

قال رسول الله ﷺ: «**تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في الله**».[٢٥]

إننا نعيش بتنفس الهواء الذي يحيط بنا من كل جانب، ولكننا لا نراه، بل نحس به حين نتنفس. فلا يمكن إنكار وجود الهواء لأننا لا نراه، لا بل نقول لضرورته: «لا نستطيع العيش بدون هواء!».

وكذلك الكائنات في البحر، لا تنتبه للماء الذي تسبح فيه، مع أنه محيط بها من كل جانب.

والله تعالى «متعال»، فهو ما وراء إداركنا، منزه عن أن يحيطه به إدارك البشر.

والله تعالى «قريب»، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد. إذا كنا مدركين لوجوده حق الإدراك، لشعرنا به في كل لحظة وفي كل حادثة. وهو تعالى يرزقنا برزقه، وندعوه، ونناجيه، ونشعر باستجابته لدعائنا.

والعقل السليم يدرك أن كل مخلوق دليل لا شك فيه على وجوده تعالى. أما الغافلون فيرون في كل شيء سببًا للغفلة.

---

٢٥. الطبراني، المعجم الأوسط، ٦، ٢٥٠/ ٦٣١٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٨١/ ٢٦٠.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إذا وضعتَ إصبعَيك أمام عينَيك، فلن ترى شيئًا» وهكذا الغفلة، حفظنا الله تعالى منها.

إن الربوبية أن يعيش المرء أعمى أصم أمام تجليات عظمة الله تعالى وقدرته الظاهرة في هذا الكون الكبير.

والربوبية التي تستند إلى إنكار ما لا تراه تنكر في حقيقة الأمر روحها وعقلها، لأنه لا أحد يستطيع رؤية روحه وعقله، ولكنه يعلم يقينًا أن حياته كلها متعلقة بوجودهما.

ومن أجل ذلك لم يستطع كثير من المفكِّرين العقلانيين الغربيين أن ينكروا الخالق.

### الموجود الكامل

يُعَدُّ الفيلسوف والرياضي ديكارت (١٥٩٧-١٦٥٠) أب العقلانية والفلسفة الحديثة، وكانت خلاصة ما وصله إليه بمحاكماته العقلية انطلاقًا من «دليل الوجود» هي ما يلي:

«إن الإنسان وكل شيء في الكون كامل، ولا شيء موجود عبثًا. ولا شيء يكون كاملًا بنفسه، بل ثمة موجود (أي الله) جعله كاملًا مكملًا. وهو موجود كامل كمالًا مطلقًا، ولا يمكن لذهن الإنسان إلا وأن تكون فيه فكرة (الموجود الأكمل). ويكفي ذلك دليلًا على وجود الله».

«إن الله موجود كامل منزَّه لا يضِلُّ ولا يُضَلُّ، فعلمهُ صحيح كامل. ومصدر العلم القطعي علمُ الله».

ويؤيد باسكال هذا الرأي بقوله:«ثمة صدى يأتي من أعماق وجودنا يُنبئنا بأننا خالدون، وهذا الصدى إنما هو إرشاد الله الذي يتجلَّى فينا».

وكل هذا اعتراف من غير المسلمين...

والحق أن ظن الإنسان أن خلقه كان عبثًا ومحاولته العيش بلا تكليف كغيره من المخلوقات مع وجود هذا النظام الدقيق في الكون والتوازن العجيب في الطبيعة إنما هو دليل على حماقة التفكير.

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز:

**﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾** [٢٦]

لقد خُلِقت المخلوقات من أجل الإنسان، وخُلِقَ الإنسان ليعبد الله تعالى، وإلا لما كان للخلق معنى.

وسيعيش الإنسان في سبيل هذه الغاية ويعود إلى الجنة... خُلِقَ الإنسان مُكرَّمًا. وسيُزكِّي نفسه ليليق بدخول الجنة.

لذلك أرسل الله الأنبياء والرسل وأنزل الصحف والكتب وفتحَ للإنسان آفاق التفكر والتدبر في تجليات عظمة الله ومظاهر قدرته اللامتناهية في هذا الكون الفسيح.

يسأل الله تعالى الغافلين الملحدين سؤالًا بأسلوب إلزامي إذ يقول:

**﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾** [٢٧]

حرَّم الله تعالى على الإنسان صفَتين وهما: **الخلق والبقاء**.

- فلا يستطيع الإنسان أن يخلق شيئًا، وهو عندما يخترع شيئًا جديدًا، يجمع مخلوقات خلقها الله تعالى.

  ولا تستطيع آلة صنعها الإنسان أن تلِد آلة مثلها، ولا طائرة أن تلد طائرة.

  وأينما ولَّى الإنسان وجهه، سيجد مخلوقات ربه.

- ولا يستطيع الإنسان البقاء، فجميع المخلوقات مُلزَمة بالفناء.

  يقول الله تعالى:

  **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾** [٢٨]

  **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾** [٢٩]

  **﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾** [٣٠]

---

٢٦. المؤمنون: ١١٥.

٢٧. الطور: ٣٥.

٢٨. آل عمران: ١٨٥.

٢٩. الرحمن: ٢٦.

٣٠. القصص: ٨٨.

إن النظام والتوازن الدقيق في الكون دليل على وجود الله ووحدانيته. يقول المفكِّر إسماعيل فني أرطغرل:

«إننا نرى آثار ألوهية الله تعالى في كل شيء في هذا الكون من الذرة إلى المجرة. ويمكن رؤية يد القدرة التي تعد (أول سبب) لأجزاء الكون كله من النظرة الأولى وقبل أي بحث دقيق. إن عقولنا وأجسامنا والحيوانات والكواكب والنجوم والأرض والسماء جميعها تعرض توازنًا وانسجامًا رائعًا. وهذا الإبداع والحكمة يشيران إلى عقل وحكمة تفوقنا وتحمل المخلوقات جميعًا إلى غاياتها، عبر قوة خارقة لطيفة مثل روح هذا العالَم. إننا نرى تناسبًا كاملًا في خلق هذا الكون وفي كل ذرة فيه، ونشاهد قدرة إبداع الله تعالى المطلقة في كل شيء من النملة إلى الشمس».

ويقول أيضًا في موضع آخر:

«حينما نرى إبداعًا في هذا العالَم، لا نستطيع إلا أن نقف حائرين أمامه ونقول: (ما أعظمه!). فلمَ لا نقول عن مبدعها (الأعظم والأكمل) بالنظر إلى قدرته وحكمته؟. إنني أرى العاجزين عن إدراك عظمة الحق تعالى أنصاف عقول معلولين بمرض الشك حائرين وسط سفسطات الفلسفة».

ويسأل الذين يدَّعون وجود هذا الكون بالصدفة الأسئلة المنطقية التالية:

«لا بد من ملايين الترتيبات والتنظيمات لتتشكل جناح ذبابة. وإذا كانت الأشكال المتناسقة في الكون بلا حساب، أفليس من اللازم أن تكون هناك كثير من الأشكال غير المتناسقة إلى أن تظهر تلك المتناسقة؟ ولماذا لا نصادف مثل هذه الأشكال غير المتناسقة؟

وإذا كانت قد انعدمت فلماذا لا نجد آثارها؟ لماذا لا نجد حيونات أشكالها غير متناسقة؟ لماذا نجد حيوانات متناسقة الأشكال؟»

«إذا كان هناك حساب وانتظام في مكان، فإن العقلَ يحكم قطعًا بوجود محاسب وناظم...هَبْ أن لكَ بستانًا زرعت فيه أشجارًا في صفوف متناسقة. وذهبت يومًا إليه، فوجدت الأشجار مكسورة. ولـمَّا سألت البستاني، أخبرك بهبوب عاصفة شديدة. فإنك عندئذ تقبل جوابه...ولكن إذا ذهبت مرة أخرى إليه، فوجدت

أن الأشجار متكسرة على الترتيب، مثلًا أربع شجرات قائمة والخامسة مكسورة وهكذا... ولمَّا سألت البستاني، أجابك بالجواب نفسه. فهل تصدِّقه؟ كلا، وسيكون لديك يقين بأن أحدهم قد أتلف بستانك. لأن المصادفة مقبولة في الحالة الأولى، ومُحالة في الثانية، لأن فيها حسابًا».

إن مَن يحاول أن يفسِّر كل شيء في الكون بالمصادفة:

- كيف له أن يثق بأن نسبة الأكسجين في الهواء لن تقل غدًا؟ كيف ينام قرير العين؟
- لماذا لا يخاف من أن يفْسُد النظام الدقيق في فصول السنة، فيكون في حرٍّ حارق أو برد ماحق؟
- كيف يكون على يقين من أن النظام الدقيق في قلبه وكليته وكبده وجميع أعضاء جسمه سيعمل غدًا وهو لا يتحكم به؟

هل تعمل سلسلة المصادفات لصالح أمثاله دائمًا؟

هل يعتقد أمثال هؤلاء حقًّا بأنه لا متحكِّم بهذا النظام البديع في الكون؟

ولو كانوا يعتقدون حقًّا بذلك، لأصابهم الجنون.

لو علِمَ المسافر بالطائرة أن الطيَّار أُغميَ عليه أو مات، ماذا يفعل؟ لربما جُنَّ من الخوف. هل سيستطيع أن يطمئن نفسه بالاعتقاد أن سلسلة من المصادفات ستحدث وتهبط الطائرة بسلام؟

لا معقتد بالربوبية أو الإلحاد يخشى من قلة نسبة الأكسجين في الهواء، ولا يسير في الأرض ومعه إسطوانة أكسجين؛ أي إن اعتماده على القدرة الإلهية اعتماد تام. إنه في غفلة نفسانية شديدة على الرغم من اعتقاده عقلًا وضميرًا بالقدرة الإلهية.

الإلحاد والكفر والإنكار... كلها بوابات للهروب من المسؤولية والعبودية وأداء الواجبات، كلها ذرائع وحجج باطلة.

والربوبية اعتقاد على هذا المنوال أيضًا، اعتقاد بعيد عن العقل والمنطق، يفسد القلب. والاعتقاد بخالق كما يعتقد الربوبيُّون لا نفع له في الآخرة.

وقد ذكرنا ضرورة وجود الحماقة من أجل إنكار الخالق.

تدعي الربوبية أنها لا ترفض وجود الخالق، ولكنها ترفض أنه رب، وتنكر الدِّين والكتاب والنبي والأحكام.

إن جعل السعي لإنكار النبي والكتاب والآخرة مع وجود الأسرار والحكم الكثيرة في الكون مذهبًا ورأيًا، ليس إلا إنكارًا للعقل والمنطق. فما أشد تعاسة هذا الإنكار الذي يُسمَّى ربوبية!

إن الإلحاد:

- رؤية الأسباب وتجاهل المُسبِّب
- ورؤية الأثر وتجاهل المُؤثِّر
- ورؤية الإبداع وتجاهل المُبدِع.

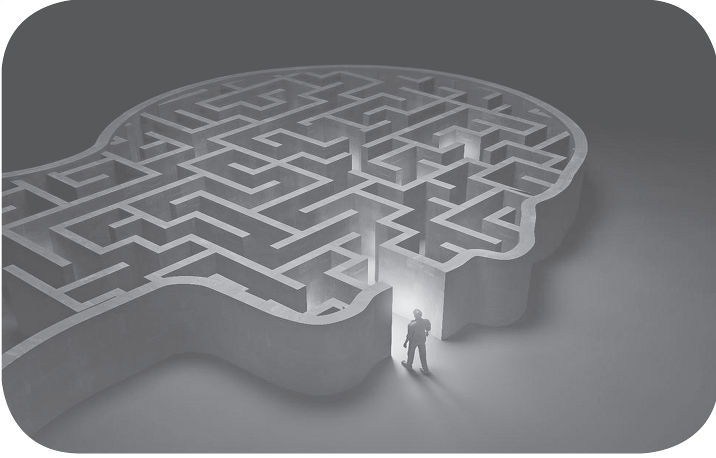
أما الربوبية فادعاءٌ بأن هذه الأسباب والأثر والإبداع عبثٌ بلا غاية ولا مقصد، وهي سواء مع الإلحاد في موضوع الإنكار.

ومِن حيل الشيطان تغيير الاسم وتزيينه، فيحاول إضلال المخاطب فيُسمِّي الزنا مثلًا غزلًا، والربا نماءً، والقمار لعبًا. واسم «الربوبية» أو غيره من الأسماء لا يغيِّر حقيقة الإنكار والكفر.

نسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا بالإيمان واليقين، ويُبعِد عنها الشك ووساوس الشياطين، ويجعلنا من الآمِنين المطمئنين!

آمين!





# أسئلة نابعة من وسوسة



إننا نسمع حماقات مثل: «هل سألني ربي حين خلقني؟»

فيأتي الجواب الرباني على أمثال هؤلاء: «كنتَ لا شيئًا، فخلقتك».

فما «اللاشيء» أمام «قدرة الله المطلقة»؟

وهل يُعقَل أن يسأل صاحبُ الإرادة والقدرة المطلقة اللاشيءَ العاجزَ؟

وماذا يُسأَل اللاشيء الفارغ؟

# أسئلة نابعة من وسوسة

ثمة أسئلة عن الإلحاد والربوبية مصدرها بحث أكاديمي منشور على الإنترنت ووسائل الاتصال الأخرى، بعضها أسئلة يطرحها عقل مُصابٌ بداء الوسوسة أجاب عنها علماء الكلام منذ القديم. غير أن أسئلة أخرى أسئلة سخيفة لا تستحق حتى النظر إليها.

ويستثقل قلب المؤمن سرد هذه الادعاءات وذكرها حتى ولو من أجل دحضها.

غير أنه من الواجب والخدمات العظيمة تبليغُ مَن وقعوا في الشك ودفعُهم للتفكر وتقديمُ إيضاحات تدفع الوساوس والشكوك، سواء بالكتابة عبر الكتب والمجلات أم بالوسائط الصوتية والمرئية؛ وذلك شعبة من شعب الأمر بالمعروف.

إن عصرنا اليوم عصر جاهلية يُسعَى فيه لنشر تيارات الإنكار والضلال والإضلال.

لذلك سنجيب هنا عن بعض من هذه الأسئلة:

وقسم كبير من هذه الأسئلة يتعلق بموضوع القدر.

والقدر موضوع يفوق إدراك الإنسان ولا بد من النظر إليه بتسليم تام. ومَن لم يستطع السير بتسليم، أنكرَ القدرَ أو أوقعَ إرادته في مستنقع الإنكار، أو ضلَّ ضلالًا كبيرًا باتهام الخالق عزَّ وجلَّ لعلمه الواسع وقدرته المطلقة، والعياذ بالله.

- إن الله تعالى ذو علم واسع وقدرة مطلقة، منزه عن صفات البشر، لذلك نجهل المستقبل، ولكن الله تعالى لا شيء يغيب عنه، وهو عليم بعاقبة عباده.
- والله تعالى يمتحن عباده، وسيدُخِلهم الجنة أو النار يوم الحساب وفقًا لنتيجة امتحانهم في الدنيا.

ومَن لم يجمع بين هاتين الحقيقتَين في ذهنه، وقعَ في خطأ النظر إلى ربه نظرَه إلى البشر، وأحاطت به أسئلة بعيدة عن المنطق. ومثل هذا الإنسان يأتي بضلالات عجيبة من أجل الدخول في اللهو والملذات، ذلك أن المسائل الكبرى تجعله تحت ثقل مسؤوليات عظيمة، فيرفضها كي يعيش حياة كسل بعيدًا عن المسؤوليات.

فيقول مثلًا: «إذا كان الله يعلم أنني سأدخل الجنة أو النار، فلماذا يمتحنني؟»

أو يقول: «لماذا خلقنا الله وهو يعلم كل شيء؟»

ألا يعلم أمثال هؤلاء أنهم يخضعون لامتحان تلو امتحان في ما يُسمونه النظام التعليمي من أجل نيل ورقة صغيرة تُسمَّى شهادة! إنهم يقولون قولهم لأنه يعلمون أن الكسول يرسب والمجتهد ينجح، وعندما يريدون أن يوظِّفوا أحدًا، يسألون عن الشهادة التي تُنال بعد النجاح في امتحانات كثيرة.

إن الإنسان الذي يعلم أن النظام في الدنيا يقتضي هذا وذاك، ثم يعترض على امتحان الله تعالى له في الدنيا ومكافأته على هذا الأساس لا بد له أن يعلم أنه مصاب بالحماقة.

وهذا الإنسان الذي يعطي هذا ويحرم ذلك وفقًا لامتحان ونظام دراسي يضعه، بأيِّ منطق يرفض وضع الله تعالى لمثل هذا النظام؟

ولو أن الأحكام كانت اعتباطية بغير امتحان، أي لو وجد المرء نفسه في جهنم بغير مقدِّمات، أما كان سيسأل حينئذ:

«لماذا لم يمتحنِّي ربِّي؟»

بلى، كان سيسأل هذا السؤال، ولن يقول:

«الله يعلم بعلمه الأزلي أنني سأكون في جهنم، فلا حاجة للامتحان».

فهذا هو جواب «لماذا» في الأسئلة السابقة. وقد وضع الله تعالى شهودًا وأدلة لا يستطيع الإنسان بوجودها أن يعترض أثناء امتحانه. فالملائكة تشهد، ودفتر الأعمال مُسجَّل فيه، وحتى الأعضاء من اليدين والقدمَين وغيرها تشهد، وكذلك الأمكنة. وسيعترف ضمير الإنسان بما يخص الحُكمَ عليه.

ومن المحال أن يُقاس الله تعالى بأحد، ولكننا نقول تشبيهًا لتوضيح الفكرة:

يحذِّر معلِّم خبير طالبه فيقول: «إذا لم تجتهد، فلن تنجح» ثم يبدأ الامتحان، ولا ينجح الطالب. فهل سبب إخفاق الطالب تحذير المعلم؟ أم علمه بأن طالبه لن ينجح؟!

إن هذَين السؤالين في الأصل لنسأل:

«لماذا يمتحننا الله؟»

«لماذا يُعذِّب مَن ينكره ولا يتَّبع أمره؟»

فلا بد أن نعرف حدودنا في هذا الشأن، لأن الله تعالى «فاعلٌ مطلَقٌ» أي الوحيد القادر على فعل ما يشاء. وهو «مالِكُ المُلك» أي مالك الكون. وهو «فاعل مختار» أي يتصرَّف بملكه كيفما يشاء. لا أحد له الحق في أن يُحسابه على ما يصنع، والعياذ بالله.

أراد الله تعالى أن يمتحن عباده، وجنته غالية، وناره لازمة.

وجعل الله تعالى رحمته رحمة واسعة في هذا الامتحان.

- فقد جعل الإنسان مستعدًا لهذا الامتحان، إذ أعطاه العقل، واستثنى المجانين والصغار من هذا الامتحان.
- وخلق كل شيء في الكون ليكون مجالًا للتفكر والتدبر. وإذا ما استعمل المرء عقله وقلبه استعمالًا حسنًا، فسيكون التفكر له مفتاحًا للإيمان.
- وأنزل الكتب السماوية وبعث الرسل لهداية عقل الإنسان. وسيبقى أولياء الله الذين تعهَّدوا بالتبليغ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قائمين حتى قيام الساعة.

قال الله تعالى:

**﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾** [31]

- ووهبَ الإنسان عمرًا يكفي ليدرك ما هو فيه. وسيقول للمتذمرين في النار:

**﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾** [32]

---

٣١. النساء: ١٦٥.

٣٢. فاطر: ٣٧.

- ولا يعذِّب الله تعالى الإنسان ما إنْ يُنكِر وجود خالقه أو يرتكب ذنبًا، بل يمهله كي يتوب ويصلح نفسه حتى لحظة خروج أنفاسه الأخيرة.
- وخلقَ وسائل كثيرة للعفو من الذنوب، وهو تعالى يعاقب على الشر بمثله، ويعطي على الخير أضعافًا مضاعفة.

فاتهام الله تعالى لوجود مَن يدخلون ناره بعد كل ما ذكرناه هنا إنما هو تطاول على الخالق وسوء أدب معه.

يقول المفسِّر أَلماليلي حمدي أفندي:

«عذاب الله تعالى محض عدل، ومغفرته محض إحسان وفضل».[٣٣]

أي إن الله تعالى حينما يعذِّب عباده، فليس ذلك بظلم بل تمام العدل. وحينما يغفر لعبده ويدخله الجنة، فليس ذلك من حق العبد، بل كرم من الله تعالى وجود.

إن العدلَ يكون في موضوع دفع ثمن النعم أو عدم دفعها، لكن لا يمكن البحث عن العدل في الإحسان واللطف، فخلقُ الله تعالى لنا من إحسانه ولطفه، وليس حقًّا لنا. فالمُحسِن إذا شاء أعطى، وإذا لم يشأ مَنع. فليس لأحد الحق في محاسبة الله في هذا الشأن.

أما العبد فمُحاسَب دائمًا، لأنه أُعطيَ النِّعم والمسؤوليات والواجبات.

وقد خلقنا الله تعالى من عدم بلطفه مجانًا من غير أن ندفع ثمن خلقنا. وجعلنا من الناس بين مخلوقاته، وجعلنا من أمة محمد من بين الأمم. وأمام هذه النعم التي نلناها من غير ثمن، سننتقل إلى الآخرة بدفع ثمن.

أي إننا سنقف في حضرة الله تعالى بعد أن نؤدي واجبنا في شكر الله تعالى في الدنيا. وسنطَّلع هناك على دفاتر أعمالنا كما نطَّلع على شهاداتنا في الدنيا. وسنشاهد شريط حياتنا، وستُعرَض علينا ملفات حياتنا المسجَّلة من غير إهمال أي صغيرة أو كبيرة في الدنيا، وسنرجو حينئذ من ربنا «الرحمة» لا «العدل».

لأن الأعمال الصالحة التي أتينا بها في هذه الدنيا ليست شيئًا أمام إحسان الله تعالى إلينا ولطفه بنا.

---

٣٣. الملالي، جـ ٢، ٩٩٢.

عن أبي هريرة ﵁ قال: قال النبي ﷺ:

**«ليس أحد منكم ينجيه عمله»**

قالوا: ولا أنت؟ يا رسول الله قال:

**«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه بمغفرة ورحمة»**[٣٤]

ثمة توازن بين النفع والضرر في الحقوق. فهناك نعمة عظيمة هي الجنة الأبدية بعد الامتحان الدنيوي. وأما وقوع الفريق الآخر في الخسران الأبدي على الرغم من العون الإلهي فإنما هو العدل ذاته.

يشعر الإنسان أنه حر وهو يتصرف بالمخلوقات الأخرى التي جعلها الله تعالى مسخَّره له، على الرغم من أنه فان.

فهو مثلًا:

- يربِّي الغنم والبقر والدجاج والسمك، فينتفع من لحومها وحليبها وبيضها، ولكنه لا يسأل: «هل لي حقٌّ في هذا؟»
- ويفصل بين القيِّم وغيره، فيرمي ما لا قيمة له في القمامة، ويخبِّئ القيِّم، ولا يقول: «ما حقي في هذا؟»
- ويشغِّل العمَّال، ولا يقول: «هل لي حقٌّ في أمرهم؟» بل يقول: «أنا أعطيهم أجرهم».

فإذا كان الأمر كذلك، فمَن له الحق في الاعتراض على حكم الله تعالى حين يعاقب مَن يعصيه من عباده، وقد خلقهم من عدم، ووهبهم أرواحًا، وأعطاهم العقل والفكر والإدراك والعمر، وأرسل لهم الأنبياء وأنزل الكتب السماوية؟

ومن الأسئلة غير المنطقية المشابهة لما ذُكِرَ فيما سبق:

سؤال: «إن الله يحبنا، فلماذا يأذن لنا بارتكاب الذنوب ثم يحرقنا؟»

سؤال: «لماذا لا يمنع الله وقوع الشر؟»

سؤال: «إذا كان من المعروف في القدر أننا سنذهب إلى الجنة أو النار، فلماذا نعبد الله؟»

---

٣٤. مسلم، القيامة، ٧٣/ ٢٨١٦.

كيف للعاقل أن يسأل مثل هذه الأسئلة إذا كانت أجوبة الامتحان في نظام بشري متعلقة بالمُمتَحَن؟ إذا تدخَّل معلم كي يمنع طالبًا من ارتكاب خطأ في الامتحان بحجة أنه يحبه، فإنه يُطرَد من وظيفته لأنه غشَّ وحابى طالبًا وفضَّله على غيره.

فما الأمانة في التعليم؟

الأمانة أن لا يتدخل المعلم في الامتحان ولو كان يحب طالبًا ويفضِّله. أي إن الإذن للطالب بارتكاب الخطأ في الامتحان ثم إخفاقه لا علاقة له بحب المعلم للطالب أو كرهه له. لا بل إن المعلم الذي لا يتدخل في الامتحان يُعَدُّ معلمًا نزيهًا صادقًا في مهنته. فإذا كان هذا الأمر منطقيًّا للعباد، فلماذا يكون بعيدًا عن المنطق حين يكون الأمر متعلقًا برب العباد؟

أما اللعب بالكلمات في موضوع العلم المسبق بمَن سيدخل الجنة والنار فليس إلا عمل مَن فسد ميزان عقولهم، ومثل هذا اللعب بالكلمات لا يمر من أي ميزان سليم.

لأنه من الواضح أن الذين سيدخلون الجنة هم مَن يؤمنون بالله ويعبدونه كما ينبغي، وهذا ما توضِّحه آيات الكتاب الحكيم.

ومن الجليِّ أن الذين سيدخلون النار هم المنكرون والعصاة وأمثالهم.

أي لا يوجد حُكم إلهي يقول: «مهما آمنت وعبدت وتوكلت ولجأت إلى رحمة الرحمن، فإنك ستدخل النار إن كان مكتوبًا ذلك في قدرك».

ولا حُكم إلهي يقول: «مهما أنكرت وظلمت وعصيت واتبعت الشيطان، فلا تخشى شيئًا، فإنك ستدخل الجنة إن كان مكتوبًا ذلك في قدرك».

إن أساس الحُكم الإلهي هو أن المنكرين إلى النار، وأهل الإيمان إلى الجنة.

أما اللعب بالكلمات في هذا الموضوع فهو عكس الحُكم الإلهي؛ أي وضع النتيجة أولًا والسبب آخرًا. والحقيقة ليست على هذا الشكل قطعًا! ومنطق: «مَن كُتِبَ من أهل النار فلماذا يعمل صالحًا عبثًا؟» منطقٌ خاطئٌ بعيدٌ عن الحقيقة.

إن الحقيقة الأصلية هي أن الامتحان يستمر حتى لحظة خروج الأنفاس الأخيرة، وأن الحياة التي تكون في هذا الامتحان عامرةً بالإيمان السليم والأعمال الصالحة والتسليم لله واللجوء إلى رحمته تعالى لا تكون في النار.

ولم يذكر الله تعالى ولا جملة واحدة في كتابه العزيز بأن مثل هذه الحياة ستكون في النار.

فممَّن تصدر مثل هذه الجملة؟

هي جملة الجهلة الغافلين الذين لا يدركون حقيقة أن «الحليب الذي يخرج من ثدي الأم لا يعود إليه!»

وهذا يُبيِّن لنا أن عكس المعادلة الصحيحة ليس من أجل إثبات الحقائق بل من أجل الإفساد فقط. أي إنه لا يمكن لأي عاقل أن يقبل فكرة أن الإنسان يُكتَب من أهل النار ثم يُفرَض عليه القيام بعمل أهل الجنة، وقد ذكر الله تعالى معادلة «دخول أهل الكفر والظلم والعصيان النار». فهذه الفلسفة التي يُراد منها في حقيقة الأمر الهرب من الامتحان ليست إلا اختيار أشد العذاب.

إن الله تعالى خالق الخير والشر، ولا يرضى بالشر، ولكنه خلقه امتحانًا لنا نحن العباد.

وعندما يأذن ربنا للعبد بارتكاب الذنوب، فذلك من شروط الامتحان. وهو لا يأذن بذلك دائمًا، فكَم من عبد ينوي إيتان جُرم، فلا يقع لأن الله تعالى لم يأذن بوقوعه.

ولنفكِّر بنقيض هذا الأمر: أي لو لم يأذن الله تعالى بوقوع أي ذنب، لما بقي شيء اسمه امتحان، ولم يكن للجنة أي معنى.

ولو كانت الجامعات في الدنيا مثلًا تعطي شهادة الطب لَمَن شاء بغير امتحان، فهل كان للطبيب أي قيمة؟

ففي فطرة الإنسان التنافس والتسابق وحب الفوز. يقول الله تعالى:

﴿...فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ...﴾ [٣٥]

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [٣٦]

---

٣٥. المائدة: ٤٨.

٣٦. الملك: ٢.

ولا بد هنا أن نعي الحقيقة الآتية:

إن الإنسان الذي يشغِّل إنسانًا مثله عنده يطرده من العمل إذا عصاه لأنه يعطيه أجره فقط، لا لأنه خلقَه، ويتركه عاطلًا وقد يرمي به إلى الجوع. ولكنه لا يشعر بمسؤولية ذلك، ويقول: «هل أنا مُجبَر على إطعامه إنْ لم يكن يطيع أمري؟»

وإنْ كان حال الإنسان هكذا، فهل الله تعالى مُجبَر على إكرام عباده الذين يعصونه لا بل ينكرون وجوده؟ حاشى لله...

إنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، ولكنه لا يظلم، ويعامل عباده بالعدل والرحمة والحكمة. ولذلك لا يقطع رزق المنكرين على الرغم من عصيانهم في هذه الدنيا.

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

**﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[37]

**﴿...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[38]

ومن الأسئلة المشابهة التي تتردد في هذا الزمان:

«لم أكن مخيرًا لدى قدومي إلى الدنيا. ويخبرني الله أنني تحملت هذا الأمر ولا أذكره».

أليس على هذا النحو تصرفُ الإنسان في الأشياء في هذه الحياة نتيجةً لما عنده من صفات؟

فحينما ينحت الحجر ويصنع تحفة فنية، فهل المخيَّرُ الحجرُ أم الإنسان؟ الإنسان بلا شك.

أليس هذا ما يقتضيه المنطق؟ نعم.

ولكن لو كان المخير الحجر، فماذا كان سيحدث؟

فلو أن الإنسان استعمل هذا المنطق الأعوج الذي يستعمله للاعتراض على خالقه في العلاقة بينه وبين الأشياء التي يصنعها، لما استطاع العيش أبدًا.

هل يسأل الإنسان عن حق اختيار الفاكهة التي يأكلها بنهم؟

---

٣٧. يونس: ٤٤.

٣٨. آل عمران: ١١٧. انظر أيضًا: النحل: ٣٣.

هل يسأل عن حق اختيار اللحم والسمك والحلوى التي يأكلها بنهم؟

هل يسأل عن حق اختيار الحجر الذي ينحته؟

ألا يحمل ذلك الحجر الفن الذي صنعه الإنسان؟ بلى.

هل يمكن لورقة أو صفيحة معدنية أن تعرض مهارة الإنسان على الحجر؟ كلا.

إن حمل المسؤولية يتوافق مع القدرة عليها. فلا نستطيع مثلًا أن نصنع عمودًا أساسيًّا لبناء ضخم من شجرة الحور، لأن خشب هذه الشجرة لا يحتمل ذلك، بل سينكسر مباشرةً، فطبيعته لا توافق هذه المسؤولية. أما خشب شجرة الكستناء فيستطيع أن يحتمل هذا الأمر ويحمل البناء لقرون طويلة، لأنه خُلِق بطبيعة توافق هذه المسؤولية.

وحمل الإنسان الأمانة الإلهية حقيقةٌ مشابهةٌ لما ذكرناه هنا. فقد خُلِقَ الإنسان قادرًا على حمل الحقيقة التي لا يستطيع مخلوق حملها، فمن الطبيعي أن يُحمَّل هذه الحقيقة ويقبلها.

وعندما يقول الإنسان: «لم أكن مخيرًا في هذا الشأن»، فذلك دليل على الكِبر، وخطأ في المنطق.

- ما دام الإنسان لم يُخلَق، فلا يمكن الحديث عن التخيير.
- أما عندما يُخلَق، فهذا يعني أنه لم يبقَ شيء يُسأَل.

فكُلُّ أثر مُجبَر على أن يكون نتيجة اختيار صانعه لا نفسه، كما ذكرنا في الأعلى. فعندما يصنع الإنسان سيارة، فهذا الفعل ليس من اختيار السيارة، بل مهارة الصانع. ولا يعترض أحد على ذلك، بل يقفون مندهشين حائرين أمام هذا الفعل.

ويصنع الإنسان أريكة، فيستعملها ويرتاح عليها، وهذه الأريكة ليست من اختيار الشجرة، بل مهارة الصانع.

فلو استعمل الإنسان المنطق الباطل الذي يسأل به الله تعالى، في ما يصنعه، لما استطاع أن يصنع آلة ولا يبني بيتًا.

لأنه لا حق لأي مادة في الاختيار، لا حق في الاختيار لدى الحذاء أو البيت أو السيارة أو الطيارة. إنما حق الاختيار في الفعل هنا للإنسان.

فليس ثمة إلا خيارَين في الامتحان في الدنيا: الفناء أو الخضوع للامتحان.

ولا مفرَّ من الامتحان!

وفكرة «أن أكون مخلوقًا ولا أُمتحَن» أضغاث أحلام.

فمن نعم الله تعالى علينا أنه خلقنا. ومَثَل الذي يعترض على هذه النعمة بقول: «لم أُسأَل!» كمثل مَن أيقظه الناس من نومه أثناء حريق، فقال لهم جاحدًا:

«لماذا توقِظونني ولم تسألوني إنْ كنتُ أريد أن أستيقظ أم لا؟»

فلو سأله الناس لأيقظوه! ومَن يريد في هذه الحال أن يحترق؟ مَن يريد أن يفنى؟

ومما يخدع الإنسان وقوعه في مصيدة التمنيات والأحلام الفارغة. فقد بيَّنت الآيات الكريمة ما سينطق به أهل الخسران في نهاية المطاف من تمنيات لا نفع منها مثل:

«ليتني أرجع مرة أخرى للامتحان! ليتني أكون ترابًا! ليتني مِتُّ! ليتني كذا وكذا».

فمثل هذه التمنيات مع وجود احتمال أن يعيش الإنسان بشرف إنسانيته التي هي لطف من ربه، ويكون عبدًا لخالقه وخليفةً له على أرضه ويصل إلى مكرمات إلهية لا تُحصى، ليست إلا عبارات للهروب من الامتحان.

خلقَ الله تعالى الإنسان «إنسانًا» أي جعله أشرف مخلوقاته، وكرَّمه ونفخ فيه من روحه، وجعله خليفته في الأرض كما ذكر في كتابه العزيز:

**﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ...﴾**[٣٩]

يقول الشيخ غالب رحمه الله:

«أيها الإنسان، انظر إلى ذاتك بعينَي قلبك نظرةً حسنةً فأنت زبدة هذا العالَم، وأنت قرة عين هذا الكون».

وهنا ينبغي لنا أن نتساءل: هل دفع الإنسان أي ثمن لمجيئه إلى الدنيا بصفة البشرية؟ أو لأجل أي فضيلة من فضائله خلقه الله تعالى إنسانًا؟

---

٣٩. الأنعام: ١٦٥.

وعلينا أن نسأل ذلك الذي يقول: «لم أكن مُخَيَّرًا في خلقي إنسانًا!»:

هل تريد أن تتغير؟ إذا كنتَ قادرًا على أن تتحول، هل كنت تريد أن تتحول إلى دودة أو فأرة وقد مُنَحتَ عقلًا وروحًا وشرفَ أن كنت إنسانًا؟

لو أُهديَ أحدهم كنوزًا تلبي حاجاته كلها مع أنه لا حق له فيها ولا طلب، فهل يقول لَمَن أهداه إياها: «لماذا تهديني هذه الكنوز؟ هل استأذنتني؟» كي يعبر عن سخطه منه؟ ألا ينبغي أن يكون محرومًا من العقل كي يقول مثل هذا الكلام؟ لأن ذا العقل السليم لا يعبِّر إلا عن حبه وامتنانه وشكره وعرفانه لَمن أهداه شيئًا.

فإذا كان الإنسان يشعر بضرورة الشكر أمام مَن يعطيه كأسًا من الماء في هذه الدنيا الفانية، فيا لقباحة منطق مَن ينطق بكلمات الجحود أمام خالقه الذي أكرمه بنعم لا تُحصَى وعلى رأسها نعمة أن خلقه إنسانًا!

إن الإنسان لا يُخلَق ويدخل الدنيا لأنه يستحق هذا الأمر؛ أي لأن له حقًّا في ذلك أو لأنه دفع ثمَن خلقه، بل يُخلَق من عدم أي من لا شيء ويُبعَث إلى الدنيا. وكلُّ ما يملكه في الدنيا لطف من الله تعالى.

فالله تعالى كان قادرًا على أن يخلقه حيَّةً تزحف في هذه الأرض، ولا يستطيع أن يعترض على ذلك، لأن المخلوقات عدا الإنس والجن لا تخضع لامتحان في هذه الدنيا، فليست مخيَّرة في مخالفة أمر الله تعالى.

وخلقُ الحيوانات ليس عبثًا، إذ ثمة نظام بينها يحكمها. والحيوانات تجليات اسمَي الله تعالى «البارئ» و«المصوِّر». فكلُّ حيوان خُلِق فريدًا له صفات خاصة به. والحيوانات سعيدة لوجودها في مجتمعات خاصة بها في هذا الكون، فهي تميل إلى بني جنسها، وهذا دليل آخر على قدرة الله تعالى. والحيوانات مسرورة بأحوالها تعيش في طمأنينة وتوكل.

فمنذ أن خُلِقَ هذا الكون لم يسعَ طائر ليبني أعشاشًا أكثر من جيرانه، ولم يُهلِك ثعلب نفسه قائلًا: «جُحرٌ واحد لا يكفيني»، ولم يمت سنجاب قلقًا واضطرابًا لأنه لم يجمع الجوز لشتائَين لا لشتاء واحد، ولم يغتم كلب لأنه لم يجمع عظامًا تكفيه في شيخوخته.

أي إن جميع المخلوقات راضية بقضاء الله تعالى لأنه خلقَ كل مخلوق ببُنية يجد فيها السعادة. فالحيَّة مثلًا سعيدة بين جماعتها، والطيور الملونة سعيدة بحياتها، وحتى الدودة كما قال مولانا جلال الدين الرومي:

«تعيش داخل الخشب وتقول: مَن لديه حلوى ألذ مما لدي!».

وأشد ما يقض مضاجع هذه الحيوانات أن يحرمها الإنسان من حياتها الطبيعية، فيضعها في قفص في حديقة حيوانات، أو يجعلها أداةً للهو والمتعة في سيرك. ومن الظلم الذي يرتكبه الإنسان حبسه الطيور في الأقفاص والأسماك في الأحواض.

فاعتراض الإنسان على ربه وعصيانه غفلةٌ عظيمةٌ عن الخصال السامية التي أُكرِمَ بها، وحماقةٌ شديدةٌ، وجحودٌ كبيرٌ. وهذا السلوك الذي يوحي بالجهل ليس إلا إبطالًا للعقل.

إن ما يجعل الإنسان يقع في هذا الخطأ ظنه المعاملة بين المخلوق والخالق كالمعاملة بين المخلوقات، فعليه ألا ينسى أن الله تعالى «خالق» يخلق من عدم، وأنه «مخلوق» خُلِق من عدم.

ومن أقبح أشكال السؤال السابق أن يقول الإنسان في حماقة شديدة: «هل سألني الله حين خلقني؟»

يقول الله تعالى: «لم تكن شيئًا، فخلقتك».

فما «اللاشيء» أمام «القدرة المطلقة»؟ وهل يُعقَل أن يسألَ صاحبُ الإرادة المطلقة المنزه عن أي عيب أو خطأ المخلوقَ اللاشيء الذي لا يخلو من عيب؟

وكيف يُسأَلُ اللاشيء؟

فيا أيها الإنسان، هل سألت طعامك: «هل تكون رزقًا لي؟»؟ هل استأذنت طعامك قبل أكله؟ هل سألت اللقمة قبل أن تمضغها؟ هل سألتَ الأشياء التي تقطعها وتفرمها أو الحيوانات التي تزهق أرواحها كي تستفيد من لحمها وحليبها أو جلدها؟ هل استأذنتها؟ هل سألت الوردة الظريفة قبل أن تُبعِدها عن غصنها كي تُمتِّع ناظريك بها؟

ولكن الله تعالى يسأل: «أيها الإنسان، أتريد الجنة أم النار؟»

يتركك تعالى لإرادتك. هل تريد أن يكون مصيرك الجنة أم النار؟ أي إنك مُخيَّر. وأنزل الله تعالى الكتب وسأل:

«أيها الإنسان، أتريد الجنة أم النار؟»

وبعث الأنبياء وسأل:

«أيها الإنسان، أتريد الجنة أم النار؟»

ثم يقول بعد ذلك:

**﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾** [٤٠]

فيا أيها الغافل والجاهل، إنك لا ترى أن الله تعالى جعلك مُخيَّرًا، ثم تهذي بقولك: «لم يسألني حين خلقني».

ويا للعجب من أمرك! تدعي أنه لك الحق في كل شيء في هذا الكون الذي وضعه الله أمانة بين يديك، ولا تمنح هذا الحق للذي خلقك وخلق الكون كله، والعياذ بالله؟

فما أشد وقاحتك! وما أعظم كفرانك!

لا تنسَ أن ربَّك مَن وهب لك حق التصرف في هذا الكون، فهو القائل في كتابه الكريم:

**﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾** [٤١]

ولا تنسَ أن الله لا يحتاج إليك، وهو لا يريد إلا أن يزكيِّك لطفًا وكرمًا منه، وبذلك يرفعك درجة، أي يجعلك عبدًا فاضلًا، فيُدخِلك جنته. وعليك أن تقرأ قوله تعالى:

**﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾** [٤٢]

إن ما يهذي به الإنسان في حق ربه ليس إلا أثر جهله وبُعده عن الحكمة، وهل لو سُئِل عن رأيه، لكان اختار الفناء؟ أم أنه كان سيطلب الجنة؟

---

٤٠. الإنسان: ٣.

٤١. الجاثية: ١٣.

٤٢. الانفطار: ٦–٨.

وهنا نستطيع أن نسأل سؤالًا يدعونا للتفكر في هذا الشأن:

لماذا ينبغي لله أن يسأل عباده؟ فهو سبحانه وتعالى ليس مُجبرًا على ذلك نظريًّا.

ولنا هنا أن نضرب مثالًا: إن الذي يقود سيارته، فهو يقبل قواعد المرور قبل خروجه من بيته. وعندما يولَد مواطن في بلد من البلدان، يقبل قوانين ذلك البلد.

فالإنسان الذي يأتي إلى هذه الدنيا، لا يعترض على قواعد الحياة فيها ويستسلم أمامها. فلا يجد في نفسه حق أن يسأل عن قوانين الفيزياء، فيسأل مثلًا: «لماذا النار تحرق؟ ولماذا البرد يُجمِّد؟» فيرى هذه القواعد قواعد إجبارية عليه أن يقبلها.

ولكن عندما يتعلق الأمر بالامتحان الذي يعد الشرط المعنوي للحياة، تراه يلجأ إلى هذا الكلام الفارغ الذي يعد نتاج فلسفة الغافلين.

وعلينا ألا ننسى أن الإنسان كلما ازداد معرفة، لجأ إلى الصمت، وزاد إدراكه للفناء. أما الذين لا يدركون الحقيقة فيسعون لطمس شرور أنفسهم وسيئاتها بأسئلة لا منطق لها مثل: «لماذا يعاقب الله مَن يطبع على قلبه بإدخاله النار؟»

وهل يطبع الله على قلب عبد خلقه ما لم يطبع العبد على قلبه هو نفسه؟ هل يرمي أحدهم شيئًا نافعًا في القمامة؟ لا بد قبل كل شيء من النظر إلى ما فعله العبد حتى طُبِعَ على قلبه.

وينبغي ألا ننسى المبدأ التالي: إن الله تعالى رحيم حكيم لا يظلم عباده، ولا يفعل أمرًا عبثًا وبلا غاية وحكمة.

لذلك إذا طبع الله على قلب عبد، فلا بد من وجود سبب وحكمة لذلك، وإنْ لم نعرفها.

وقد أخبرنا الله تعالى بقسم من الأسباب في كل مرة ذكر في القرآن الكريم عبارة: (لا يهدي).

فمَن أصرَّ على الأفعال السيئة مثل الجحود والظلم والفسق والفجور والكذب، طُبِع على قلبه.[٤٣]

٤٣ . انظر: البقرة: ٢٥٨، ٢٦٤؛ آل عمران: ٨٦؛ المائدة: ٥١، ٦٧؛ الأنعام: ١٤٤؛ التوبة: ١٩، ٢٤، ٣٧، ٨٠، ١٠٩؛ النحل: ١٠٧؛ القصص: ٥٠؛ الزمر: ٣؛ غافر: ٢٨؛ الكهف: ١٠؛ الصف: ٥، ٧؛ الجمعة: ٥؛ المنافقون: ٦.

ذكَرَ الله تعالى الخصال التي يحب أن يراها في عبده وتلك التي يكرهها. لذلك ينبغي ألا نحار من حرمان المُصرِّين على الخصال التي يكرهها الله تعالى من الهداية، ولا نرى ذلك ظلمًا من الله، والعياذ به.

وجميع الأسئلة التي ذكرناها حتى الآن تسعى للاعتراض على الامتحان الذي هو سبب وجودنا، وتبحث عن خطأ منطقي فيه. على أن الحقيقة واضحة وضوح الشمس، ولا مجال للمناورة، ولن يُستثنَى إنسان من هذا الامتحان لأنه وقع في مثل هذه الوساوس.

يقول الله تعالى:

**﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** [٤٤]

ومنهم مَن يقع في وسوسة: «لماذا نموت إذا كنَّا سنُبعَث بعد الموت؟»

## الموت بوابة الآخرة

إن الموت وسيلة لها وجهان في امتحان الإنسان. فالذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، يحسبون الموت نهاية، أي يعتقدون أن الموت يحجبهم عن عالَم الآخرة. وقد كان المنكرون في الجاهلية يمسكون عظامًا بالية ويقولون ساخرين: «مَن يحيِ هذه؟» فيأتيهم الجواب الرباني:

**﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾** [٤٥]

أما المؤمنون فيعتقدون أن الموت بوابة للآخرة التي هي العيش الحقيقي. ويتفكرون في الموت، ولا يقعون في أهواء هذه الحياة الفانية ومصائدها، ويرون الدنيا محطة في رحلتهم فلا ينشغلون فيها عن الآخرة.

إن الموت نعمة مثل الحياة والعمر لأنه إعلانُ الفناء. يقول الله تعالى:

**﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾** [٤٦]

---

٤٤. الأنعام: ٢٤.

٤٥. انظر: يس: ٧٨-٧٩.

٤٦. الملك: ٢.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«يا بُني، إن موت كل إنسان من لونه. فالموت يبدو عدوًا مخيفًا لمَن يُعادونَه ويكرهونه من غير أن يدركوا أنه يوصِل العبد إلى حضرة ربه. والموت يبدو صاحبًا عزيزًا لمَن يصاحبه».

«يا أيتها النفس الهاربة من الموت! إذا أردتِ جوهر الأمر، وخلاصة القول، فاعلمي أنكِ لا تخشين الموت، بل تخشين ذاتك [أي ذنوبك]».

«لأن ما ترينه في مرآة الموت فتخشينه وتهابينه ليس وجه الموت، بل وجهك القبيح».

«إن مثَل روحكَ كمثل شجرة أوراقها الموت. وكل ورقة تكون من جنس الشجرة...».

لولا الموت في هذا الامتحان، ولو أن كل مولود عاش حتى قيام الساعة، لزاد الامتحان صعوبة. والشيخوخة، وبدأ ضعف القوة بعد منتصف العمر، والموت في نهاية المطاف، دلائل على أن هذا الكون فان وأن العيش إنما هو عيش الآخرة... لمَن يبصر ويعقل بلا شك.

يقول الله تعالى:

**﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾** [٤٧]

إن الموت موجود ليعلم الإنسان عجزه. يخاطب الله تعالى في سورة الواقعة الذين يجلسون عند رأس الميت فيقول:

**﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ. فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** [٤٨]

إن الموت موجود ليعقل الإنسان أن الحياة الأبدية بعد البعث هي بإرادة المولى سبحانه وتعالى. ولولا الموت لظن الناس أنهم خالدون فأكل بعضهم بعضًا سعيًا وراء مطامعهم.

---

٤٧. يس: ٦٨.

٤٨. الواقعة: ٨٣–٨٧.

على الإنسان أن يتفكر فيما يلي:

- لماذا يأتي القادم إلى هذه الدنيا؟ وإلى أين يذهب المغادر منها؟
- في مُلكِ مَن نعيش؟
- برزق مَن نُرزَق؟
- إلى أين المصير؟

فمثل هذه التساؤلات تكون وسيلة للإنسان كي يعلم أن هذه الدنيا مدرسة للتفكر ودار ابتلاء.

**المساواة أمر والعدل أمر آخر!**

سؤال:

«إننا نؤمن بالله تعالى لأننا وُلِدنا في أُسَر مسلمة. ولكن ما ذنب المولود في أسر غير مسلمة؟»

سؤال:

«لماذا يجعل الله تعالى حياة عبد شقية وحياة آخر مريحة؟ لماذا لا يعدل الله في هذا الشأن؟»

إن هذَين السؤالَين متعلقان بسِرِّ القدر، فتعالوا نجيب عنهما معًا.

يخلط الناس غالبًا بين المساواة والعدل، فالمساواة ما كانت عدلًا قط.

إذا كنَّا نريد الحديث عن المساواة، فإننا نُذكِّر هنا أن الله تعالى مَنَحَ عباده جميعًا نعمَة العقل، فذلك مساواة بينهم.

أما إذا كنَّا نحكم بين أناس ليسوا في ظروف متساوية من المنطلق نفسه، فإننا هنا نتحدث عن غياب العدل.

إن حساب الله تعالى سيكون حسابًا خاصًّا لكل فرد، ويزيل قلق الإنسان في هذا الشأن فيقول:

**﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾** [٤٩]

---

٤٩. البقرة: ٢٨٦.

يُمتَحن كل إنسان وفقًا لظروفه. والله تعالى جعلَ كل مصيبة أو شِدَّة وسيلةً للثواب، فالذي وُلِدَ أعمى في الدنيا إنْ صبرَ، فسيشكر الله تعالى أن خلقه أعمى في الدنيا حين يرى نِعَم الآخرة.

يقول الله تعالى:

﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...**﴾[٥٠]

فالإيمان يوجِب على المرء أن يؤمن بهذه القاعدة. والمؤمن لا يشُكُّ برحمة الله تعالى، ولا يعتقد أنه ظالم.

ويستغل بعضهم الذهنية التي تطرح السؤالين اللذَين ذكرناهما من أجل ادعاء أن دين الإسلام ليس بدين حق، فيقولون:

«كل إنسان يؤمن بدين أمه وأبيه ومجتمعه. إذن لا يوجد إيمان صحيح مطلَق، والإيمان نسبي. وكل إنسان يرى إيمانه صحيحًا من وجه نظره...».

كلا، هذه الفكرة ليست صحيحة. فالإسلام بدأ في منطقة جغرافية لم يصل التبليغ إليها لقرون. وقال الناس هناك: «لا نتخلى عن دين آبائنا!» وقد حاربَ نبينا الكريم محمد ﷺ تلك العصبية.

فامتحان كل إنسان في عالَمه الأنفسي يجري شخصيًّا له. فكم مِن إنسان نشأ في حلقات المساجد ثم أضاع إيمانه أو غرق في الفسق والفجور، وكم مِن إنسان وُلِد في ديار بعيدة عن دار الإسلام ونشأ فيها ثم اهتدى إلى هذا الدين المبين.

إن قدر الإيمان سِرٌّ إلهيٌّ.

فأبو طالب الذي حمَى النبي لسنوات لم يحظَ بالإيمان، وهند التي قتلت سيدنا حمزة ولاكت كبده حظيت به. فلا نعلم الحكمة من ذلك، لأن عقولنا محدودة.

ولم يستطع موسى عليه السلام حين صحبَ الخضر عليه السلام أن يستوعب الوقائع الثلاث بعقله فاعترض عليها، لكنه حينما علم الحكمة منها من الخضر، اطمأن.

ولا نعلم السبب الباطني لعدم إيمان أبي طالب، ولكن السبب الظاهري واضح في قوله للنبي:

٥٠. النساء: ٤٠.

«لا تحدث نساء قريش أن عمك جزع عند الموت».[٥١]

أي إنه جعل تعييب النساء أهمَّ من اتباع رسول الله ﷺ.

وقد رأى علماء الكلام ضرورة أن يؤمن مَن لم يُبلَّغ أو لم يسمع عن نبي، بوجود الله تعالى ويعتقد بوحدانيته، نظرًا لتجليات عظمة الله سبحانه وتعالى وحكمته في هذا الكون.

وينبغي لنا ألا ننسى أن رحمة الله تعالى أو غضبه قد يتجلَّيان حتى بعمل صغير مُحتقَر، وإدراك الحكمة من ذلك يفوق طاقة عقولنا.

ومن الوساوس:

سؤال: «إن الخلود فكرةٌ لا يستوعبها العقل، فكيف أستوعب فكرة أن الله تعالى خالد؟».

إن الإنسان محدود. ولا تستطيع النملة أن تفهم إدراك الإنسان.

## هل يُجعَل البحر في قارورة؟

دعونا من فهم فكرة الخلود، إننا عاجزون حتى عن فهم هذا الكون المخلوق. وليست لدينا كلمات نستطيع أن نحصي بها الأعداد اللامتناهية في هذا العالم... فنقف مثلًا عند التريليون...

وكذلك تُسَدُّ الأبواب أمام إداركنا في عالم الذرات...

إننا لا نستطيع أن نقول عن شيء لا ندركه بأنه «غير موجود». فذكاء كثير من الناس لا يستوعب كثيرًا من مجالات الرياضيات، فلا نستطيع أن نزيل المسألة الرياضية لأن أحدهم لا يفهمها. إننا عاجزون. فإذا كنا كذلك، فعلينا أن نكون مدركين حقيقتنا أمام الخالق سبحانه وتعالى.

ولنا أن نذكر هنا أن ديننا العظيم لم يكلِّف الأذهان بواجبات نظرية عميقة تستصعبها، لأنه يستهدف كل إدارك ضعيف. وعندما نظر بتسليم إلى واجباتنا في موضوع الإيمان والعبادة، فسنجد أنها فطريَّة يسهل على الجميع أداؤها. والحق أن الله

---

٥١. الواحدي، أسباب النزول، ص٢٦٨.

تعالى لم يأمرنا بأن نتفكر في ذاته، لا بل هناك أحاديث شريفة تنهانا عن هذا الأمر، منها قوله عليه الصلاة والسلام:

**«تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله»**.[٥٢]

إننا نتفكر في صفات ربنا وتجليات عظمته وقدرته، فيكون هذا التفكر مفتاحًا لإيماننا.

هل نستطيع أن نجعل بحرًا في قارورة؟

هل نستطيع أن نعطي طالبًا في المرحلة الابتدائية كتبًا جامعية ليدرسها؟

وسعيُ العبد لإدراك الله شيء أصعب من المثالَين السابقَين ومُحال تحقيقه، أي لا يمكن لمخلوق محدود أن يحيط علمًا بخالق لا يحده حد.

يقول الله سبحانه وتعالى:

**﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾**[٥٣]

سؤال: «إذا كانت ساعة موتنا مكتوبة في القدر، فكيف تُطيل الصدقة أعمارنا؟»

إننا نقول عن تقدير الله تعالى للأحداث في هذا الكون «قدر». وينبغي لنا ألا ننظر إلى علم الله تعالى بقيود الزمان الذي يحدُّنا لأننا لا نستطيع إدراكه سبحانه وتعالى.

إن قدرنا معلوم ولكننا نعبد الله، وقدرنا معلوم ولكننا ندعو الله ونتصدق، لأننا لا نعلم شيئًا.

إذا كنا ندعو ونتصدق، فإن ربنا الذي يعلم الغيب يعلم ذلك أيضًا، وهذا يعني أن دعاءنا وتصدقنا مكتوبان أيضًا في قدرنا.

لو لم يكن ربنا عالمًا بقدرنا وقراراتنا وأعمالنا التي نأتي بها بإرادتنا الجزئية، لكان ذلك نقصانًا عند الخالق، والعياذ بالله المنزَّه عن النواقص. فجهل الغيب أمرٌ خاصٌّ بالإنسان، ونحن ننزه الله تعالى من هذا الجهل.

---

٥٢. الطبراني، المعجم الأوسط، ٦، ٢٥٠/ ٦٣١٩؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٨١/ ٢٦٠.

٥٣. لقمان: ٢٧.

إن النقاش في موضوع الغيب لا ينفع أحدًا. فكم من عقول نيِّرة في التاريخ أنكرت القدر أو رفضت الإرادة نتيجة هذا الناقش.

علينا أن نهتم بما سنُسأل عنه يوم القيامة، فهناك لن يُسأَل الواحد منا:

«هل فهمت القدر؟» بل:

- «أين قضيت عمرك؟»
- «ماذا فعلت بعلمك؟»
- «من أين كسبت مالك وأين أنفقته؟»
- «فيمَ أبليت جسمك؟»

والسؤال التالي سؤال نابع عن جهل وحرمان من التفكر في قدرة الله:

سؤال: «لماذا يختبرنا الله تعالى إنْ كان ليس في حاجتنا؟»

إن الله تعالى لا حاجة له إلينا. فالحاجة تكون لدى المخلوق العاجز.

إننا محتاجون. كنا محتاجين لأن يخلقنا الله كي يكون لنا وجود، فخلقنا.

كنا محتاجين لنعمة الحياة والعقل والصحة، فأعطانا.

ولكننا الآن لا نطمئن بهذه الحياة الفانية، بل نطلب الحياة الأبدية أي الجنة. فأرانا ربنا السبيلَ إليها، وأكرمنا بمرشد يرشدنا.

فهل يليق بنا أن نسأل: «لماذا يختبرنا؟»

بل علينا أن نشكره، فقد أعطانا جميع النعم مجَّانًا.

ويقول لنا: «أدُّوا واجبات العبودية التي يسَّرتها لكم رحمةً مني في هذا العمر المحدود، أُعطِكُم جنةَ الخلد أيضًا».

ثم يقول قائل: «لماذا لا تعطينا الجنة أيضًا مجانًّا؟» فما أعظمها من حماقة!

سؤال: «إذا كنتُ أرغب شخصًا في الجنة، وهو يرغب غيري، فماذا سيحدث؟»

لا شك أن رغباتنا في الجنة ستكون متوافقة مع رغبات غيرنا. وإذا كنا قد بلغنا مرتبة رضا الله تعالى عنا حقًّا، فهو قادر على أن يجعل مَن نرغبه يرغبنا، أو إذا كان مَن نرغبه غير لائق بنا، فهو قادر على أن يزيل الرغبة من قلوبنا.

إن مثل هذه التساؤلات ليست بشيء أمام أهوال يوم المحشر.

وقد بشَّرنا الله سبحانه وتعالى بأن الصالحين من الآباء والأزواج والذرية سيكونون معًا في الجنة.[٥٤]

يصف القرآن الكريم مشهدًا من مشاهد يوم القيامة: إذ يُستقبَل عباد الله تعالى الذين سيدخلون الجنة يوم المحشر استقبالًا حافلًا بقول:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[٥٥]

أما الذين عصوا الله تعالى في الدنيا فيُخاطبون بقول:

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٥٦]

وذلك أصعب الفراق. لذلك علينا أن نحمي أنفسنا وأهلينا وأحبابنا من النار كي لا يصيبنا هذا الفراق... ومن أجل ذلك كان من أعظم واجباتنا بناء شخصية إسلامية في أولادنا.

ومن الأسئلة التي تنبع عن جهل بالدين:

سؤال: «إننا نُعيب عُبَّاد الأوثان ولكننا نحن أيضًا نطوف حول الكعبة».

إن الكعبة نقطة إشارة.

### الكعبة نقطة استقامة

لله سبحانه وتعالى شعائر. وقد حدَّد الله تعالى أماكن مقدسة منها الكعبة، والحجر الأسود، والصفا، والمروة، وجبل عرفات، ومزدلفة، والبيت المقدس حيث أُسرِي إليه النبي عليه الصلاة والسلام.

فتعظيم هذه الأماكن من التقوى.

أما ما يضيفه الناس من قدسية على أشياء فأمرٌ مردودٌ. وصلاحية التشريع لربنا وحده، وله وحده صلاحية تحديد القبلة والأماكن والأركان.

خاطبَ الله تعالى الملائكة قائلًا: (اسجدوا لآدم)، فأطاعوه إلا إبليس عصى.

---

٥٤. انظر: الرعد: ٢٣؛ غافر: ٨.

٥٥. يس: ٥٦.

٥٦. يس: ٥٩.

والسجدة لآدم حاشى أن تكون سجدة عبودية. فآدم حينئذ كان إشارةً للسجدة التي أُدِّيَت لله تعالى، أي كالقِبلة.

وكذلك الأمر في الكعبة، فهي نقطة استقامة للسجدة لله تعالى. وهي توحِّد صف المؤمنين وتجمعهم في نقطة واحدة وتُزيل شتاتهم.

وما أجمل منظر الوحدة في حرم المسجد الحرام والمسلمون يصلون معًا!

إن كلَّ شيء في ديننا العظيم يستند إلى مصادر مثل الكتاب والسُّنَّة، نُسمِّيها الأدلة الشرعية. ولا يجوز القياس في التوقيفية من العبادات، فالكعبة ليست مثل الأوثان، فقد بناها سيدنا إبراهيم عليه السلام بأمر من الله تعالى.

ولكي نفهم هذا الموضوع نذكر قول سيدنا عمر بن الخطاب حين اقترب من الحجر الأسود وقبَّله:

«إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي عليه الصلاة والسلام يقبلك ما قبَّلتك».

والقاعدة في الفقه أن الكعبة لو أُزيحَت من محلها، فلا قدسية في ذلك البناء البعيد عن مكانه، لأن القدسية في المكان، لا في حجارة البناء. وقد أُعيدَ بناء الكعبة مرات في التاريخ.

سؤال: «وماذا إذا كان المسيحيون أو الملحدون على حق؟»

إن كونهم على حق أمرٌ محالٌ، فكل شيء واضح وضوح الشمس. وقد ذكرنا فيما سبق من هذا الكتاب كيف صارت المسيحية دينًا وضعه البشر، وذكرنا كيف أن الإلحاد عمى وحماقة، فمن العبث أن نتساءل إنْ كانوا على حق.

يُروَى أن رجلًا دهريًّا (أي ملحدًا ينكر الآخرة) قال لسيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«إنكم تعملون سُدى في هذه الدنيا، وماذا إنْ لم تكن هناك جنة ولا نار؟»

فقال سيدنا علي رضي الله عنه:

«إنْ كنتَ على حق، ما ضرَّني ذلك شيئًا. أما إنْ كنتُ على حق، وكانت الجنة، فهل تعي ما ستخسر؟ وإنْ كانت النار، فهل تعي إلى أين مصيرك؟».

ينبغي للدين أن يشمل الحياة كلها، وأن يجيب عن تساؤلات الناس كلها. والمعتقدات التي وضعها البشر عاجزةٌ في هذا الشأن، فهي تقتصر على أمور معيَّنة، ومع ذلك لا تكون على صواب.

والدِّينُ الذي يستطيع أن يجيب عن كل سؤال لا يكون إلا من عند الله تعالى القائل في كتابه الكريم: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ** ...﴾[٥٧]

## هل تستطيع قوانين الفيزياء أن تهدد واضعها؟

سؤال: «نسمع عن المعجزات في دروس علم الكلام ولكن لا دليل عليها. هناك حديث عنها من غير دليل».

علينا قبل أي شيء أن نذكِّر المعترضين بأن قسمًا من الذين رأوا هذه المعجزات بأعينهم لم يؤمنوا، بل قالوا: «سحر مُفترى».

ولا شك أن السبب في صعوبة قبول المعجزة اعتقادُ الذهن أن القوانين الجارية في الكون قوانين مطلقة ضرورية. ولكنهم لو تفكروا وتدبروا، لعلموا أن هذه القوانين من وضع الله تعالى.

وهذه القوانين التي وضعها الله تعالى لا تحد من قدرته المطلقة.

وعلى الإنسان أن يعلم أيضًا أنه لا يستطيع أن يحيط علمًا بهذه القوانين، وأنه يجهل الاستثناءات منها.

فالذي لم يرَ المغناطيس من قبل مثلًا لن يقبل وجود مادة مثل الحجر تجذب الحديد، ولكنه ما إنْ يعلم وجود مثل هذه المادة، يقبلها. ولن نستطيع فهم المعجزات إنْ كنَّا نجهل وجود قوانين أعلى لله تعالى خالق هذه المعجزات، وليس من الصواب أن ننكرها.

إن الإنسان اليوم يشاهد في أفلام الخيال العلمي كيف تُفتَح ممرات بين الأبعاد وكيف يسافر في رحلة عبر الزمن، ولا يجد صعوبة في قبول مثل هذه الأمور من خلال منطقها، ويقول: «إننا لم نصل إلى مثل هذه التقنيات بعد، ولكنها ممكنة في العالَم الذي نتخيَّله».

---

٥٧. آل عمران: ١٩.

فلماذا لا يقبل هذا الإنسان نفسه أن الله تعالى خالقَ كل شيء قادرٌ على كل شيء وأنه قادرٌ على خلق أسباب ما يريد صنعه؟

والإنسان في الماضي لم يكن يعرف الأشعة مثل «بيتا وغاما وألفا»، ولكنه الآن يعلم بوجودها. وقد بيَّنَ الله تعالى في كتابه الكريم أنه أعطى القليل من العلم للإنسان.[٥٨] ولم يستطع الإنسان بهذا العلم القليل أن يكتشف هذه الاكتشافات إلا بسعي دؤوب على مدى آلاف السنين... فهل نؤمن بالتقنيات التي طوَّرها الإنسان مرحلة بعد أخرى ولا نؤمن بقدرة الله المطلقة؟

وثمة علماء رأوا أن المعجزات تفتح الآفاق للإنسان في مجال العلم والتقنيات.

فسيدنا إبراهيم عليه السلام لم تحرقه النار معجزةً من رب العالمين. واليوم يخترع الإنسان ثيابًا وأصبغة لا تحترق بالنار.

وسيدنا عيسى عليه السلام أحيى الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص معجزةً من رب العالمين. واليوم يستطيع الأطباء أن يعيدوا عمل القلب المتوقف بالصدمة، واخترعوا أدوية لم تكن معروفة من قبل، وأجروا عمليات نقل للأعضاء.

وسيدنا سليمان عليه السلام كان يسافر عبر الرياح مسافة شهر في يوم. واليوم يستطيع الإنسان أن يقطع المسافة بين أبعد نقطتين في الأرض بالطائرة في يوم واحد.

فحتى هذه الأمثلة تكفي لندرك أن المعجزات حقيقة. وإذا كان الإنسان قادرًا على تطوير قدراته بسعي حثيث، ويستطيع أن يصنع ما لم يقدر عليه بالأمس، فلماذا نحار من معجزات الله تعالى القادر المطلق؟

سؤال: «لماذا أذنَ الله لتحريف الكتب السماوية السابقة؟»

تعهَّد الله تعالى بحفظ القرآن الكريم حتى قيام الساعة، لأنه لا كتاب بعده سينزل على الناس. أما ما قبل الإسلام فقد كان الله يبعث الأنبياء والرسل وينزل الكتب السماوية. فقد كانت حاجات الناس وبنية المجتمع تتبدل. كان كل نبي من الأنبياء الذين بلغ عددهم نحوًا من ١٢٤ ألف على عقيدة واحدة، وجاؤوا بشرائع توافق المجتمعات التي أُرسِلوا إليها.

---

٥٨. انظر: الإسراء: ٨٥.

سؤال: «حُرِّم الخمر على مراحل للسابقين، فلماذا حُرِّم علينا مباشرة؟»

إن التدرُّج كان في مرحلة نزول الوحي، ثم اكتمل الدين. ولا يمكن الرجوع إلى ما قبل مرحلة الكمال.

ولكن قاعدة التدرج تستمر في تعليم الإسلام. فلا بد من التدرج من أجل الفرد أو المجتمع الذي يُبلَّغ إليه الإسلام لأول مرة، ولكن هذا لا يعني إبطال الشريعة، بل هو سهولة التطبيق الناشئة من فراسة المسلم وبصيرته.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن:

«**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**».[٥٩]

فعندما يكتمل الدين، فلا حاجة للتدرج. ولكن الله تعالى أمر باستعمال القول اللين أثناء تبليغ الدين وهداية الناس. يقول الله تعالى مبيِّنًا أهمية التبليغ بأسلوب حسن:

﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[٦٠]

سؤال: «أجد غرابةً في قول الله تعالى دائمًا: أنا صنعت، أنا خلقت».

إن الله تعالى ليس إنسانًا عاجزًا حتى ينزعج السامع من قول الله تعالى: «أنا». ومن الطبيعي ألا ينزعج الإنسان العاقل من قول ربنا تعالى العظيم القدير خالق كل شيء: «أنا». إن ضمير «أنا» و«نحن» المذكورة في الآيات الكريمة دلائل أخرى على عظمته سبحانه وتعالى.

سؤال: «لماذا لا توجد مساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم؟»

إن الرجل والمرأة في الإسلام هما في ميزان العدل وليسا في تُرَّهات المساواة التي تُفهَم في هذا العصر.

---

٥٩. البخاري، الزكاة، ٤١، ٦٣/ ١٤٩٦، المغازي، ٦٠، التوحيد، ١.

٦٠. النحل: ١٢٥.

## شرف المرأة في الإسلام

إن الرجل والمرأة سواء أمام الله سبحانه وتعالى في موضوع الإيمان والعبادات والواجبات، فهما مُكلَّفان بالإيمان، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج. وهذا ما يؤكِّده قول الله تعالى:

**﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾** [٦١]

وقوله تعالى:

- **﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ**
- **وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**
- **وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ**
- **وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ**
- **وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ**
- **وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ**
- **وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ**
- **وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ**
- **وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ**
- **وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ**

**– أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾** [٦٢]

ثمة أديان ومعتقدات كثيرة غير الإسلام ترى المرأة إنسانًا من الدرجة الثانية ومصدرًا للشرور.

أما في الإسلام فتُعَدُّ الزوجة الصالحة من أعظم النِّعَم في الدنيا. والجنة تحت أقدام الأمهات الصالحات.

---

٦١. النساء: 124؛ انظر أيضًا: آل عمران: 195؛ النحل: 97؛ غافر: 40.

٦٢. الأحزاب: ٣٥.

غير أن الرجل والمرأة ليسا سواءً في الخِلقة والفِطرة، بل يُكمِّل أحدهما الآخر. وهما ليسا سواء من حيث شكل الجسم والمشاعر، لذلك يتقاسمان المسؤوليات الاجتماعية وفقًا لفطرتهما. والإسلام دين فِطري، لذلك عكَسَ هذا الاختلافَ في الجسم والمشاعر على حقوق الرجل والمرأة وواجباتهما.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال:

**«ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها، وولده وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»**.[٦٣]

أما في عصرنا «الحديث» فإن المرأة تُستغَل وتُترَك على قارعة الطريق تحت دعاية المساواة مع الرجل.

إن المرأة تأخذ مكان الزوجة والأم في مؤسسة الأسرة المقدَّسة التي يجد فيها المرء الطمأنينة والسكينة، لذلك تغلب العاطفةُ المنطقَ العقلي لدى المرأة. والإسلام لهذا السبب يحفظ المرأة بالحِكَم مثل الحياء والعفة والستر، ويحميها ضمن نطاق الأسرة.

وينبغي لدى الحديث عن المساواة بين الرجل والمرأة رؤيةُ الوجه الحقيقي للغرب لا الوجه المُقنَّع المُزيَّن. وهل يُعقَل أن يُفتَّش عن الفضائل في مجتمع عزف أفراده عن الزواج، وكثرت حالات الطلاق، وانتشر الزنا، وقلَّ عدد سكانه، وتُرِكَت الأمهات المُسِنَّات يمتن وحدهن في البيوت، وصارت النساء تعمل عمل الرجال كقيادة الحافلات العامة وغيرها؟

ولا ننسى أن المجتمع الإسلامي لا يعارض عمل المرأة أو انشغالها بالعلوم والفنون على أن يُتجنَّب الاختلاط. فقد كان لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها نحو من ٣٠٠ من طلاب العلم. وثمة آلاف من الأوقاف أُقيمَت على يد النساء في العصر العثماني.

---

٦٣. البخاري، الأحكام، ١/ ٧١٣٨؛ مسلم، الإمارة، ٢٠/ ١٨٢٩.

إلا أن العقل السليم والفطرة تريَان أن المهمة الأساسية للمرأة الأمومة، أي أن تكون تاج مؤسسة الأسرة المباركة. ولا ريب أن الشخصيات العظيمة في التاريخ الإسلامي تربَّت على أيدي أمهات فاضلات.

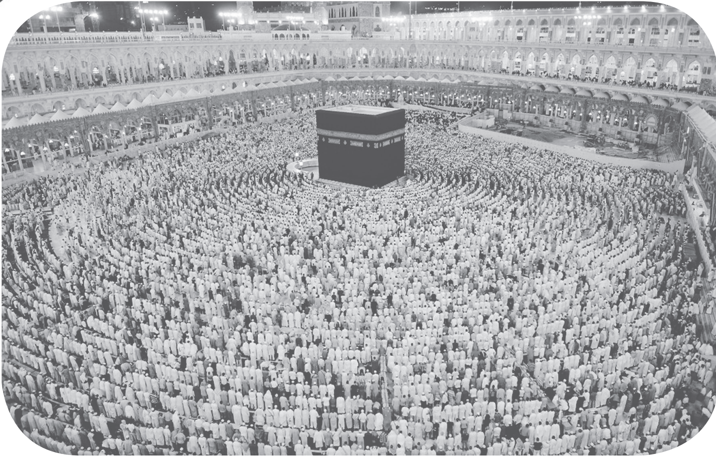
وفي دين الإسلام عقيدة وأحكام ومعاملات ونظام اجتماعي وأخلاق حميدة. ويكفل الإسلام أن ندرك الغاية من خلق الكون والإنسان، ويُنظِّم جميع نواحي الحياة من المهد إلى اللحد، لا بل حتى كلَّ نَفَس يتنفَّسه، وكلَّ خطوة يخطوها...

اللهم نوِّر عقولنا وقلوبنا بأنوارك، واحفظنا من أهواء نفوسنا وحيل الشيطان ودسائسه، واجعل أفكارنا وأحاسيسنا في سبيل رضاك يا رب العالمين.

اللهم اعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا فأنت أرحم الراحمين.

آمين!





# الحقيقة المطلقة والدِّين الحق



إن الإسلام يشمل جميع جوانب الحياة، ويجيب عن كل سؤال يطرحه الإنسان كي يفوز بالسعادة في الدَّارَين، ولن نجد أي تناقض بين هذه الأجوبة، بل هي أجوبة منطقية كافية وافية. ويمكن أن نصف هذه الأجوبة بأنها ذات جناحَين، أي تضمن السرور والفوز لصاحبها في الدنيا والآخرة.

# الحقيقة المطلقة والدِّين الحق

إن المعتقدات الباطلة التي يتذرَّع بها الربوبيُّون للنأي عن الأديان هي:

أن جميع الأديان القائمة على سطح الأرض من صنع البشر، وكل إنسان يدخل في الدين السائد في بلده وثقافته، ولا يختاره.

وأن الأديان من الرقي الاجتماعي للإنسان وليست لها أي سُلطة.

وأن جميع الأديان تُحرِّض على الحروب، وتزرع الفتنة بين المجتمعات.

من أجل ذلك يجب ترك هذه الأديان كما يدَّعون، والاكتفاء بالربوبية الدِّين «الطبيعي» القائم على العقل والضمير، والمتعلق بالقواعد الأخلاقية للبشر.

وقد قدَّم هذا الادعاء أصحاب المذهب الوضعي في الماضي، وهم يرون أن الدِّين جزء من التطور البشري ولكنه بال، وينبغي أن يحل «العلم» محلَّه.

وادَّعت الاشتراكية والشيوعية أن الدين أفيون الشعوب يُخدِّر المجتمعات، وسعَى هذان النظامان إلى دفع الدين خارج النظام الاجتماعي. ولكن الدِّين بقي قائمًا على الرغم من إقصائه لنحو من ٧٠-٨٠ عامًا في الاتحاد السوفيتي والصين وغيرها من الأنظمة الشيوعية. وحتى الأديان المحرَّفة بقيت قائمة فيها. واستمر وجود الدين على كثرة الضغوط والدعايات ضده، ذلك أن العقيدة من فطرة الإنسان.

أما الإسلامُ الدِّينُ الحقُّ فظلَّ راسخًا شامخًا على كثرة الهجمات عليه، لأنه في حِفظ الله تعالى. وكانت الادعاءات مثل تعذر تطبيق الدين في العصر الحديث وفقدانه صلاحيته وغيرها من الادعاءات التي لا أصل لها نابعةً من الجهل بالإسلام الدِّين الحقِّ.

ومن الواضح بطلان هذه الادعاءات للذين يعلمون أن الإسلام نظام كامل متكامل، ويدركون أركانه وأسسه التي تضمن الفوز للإنسان في الدنيا والآخرة.

وينبغي لَمَن ينظر إلى هذا الدين بحُكم مُسبَق عليه أن يراجع معلوماته عن هذا الدين المبين، لا سيما في ظل الافتراءات والتزييفات وتأثير هجمات رهاب الإسلام أو ما يُسمى «الإسلاموفوبيا».

## الأديان الأخرى والإسلام

إن الأديان سوى الإسلام ابتعدت عن الحقيقة، فهي إما من صنع البشر، أو مُحرَّفة بفعل البشر.

وقد ذكرنا بتفصيل فيما سبق من هذا الكتاب تحريف المسيحية عقيدةً وعبادةً.

ولنا أن نذكر هنا مثالًا يبيِّن تحريف الأديان:

عُرِفَت ملكة قشتالة الملكة إيزابيلا التي اشتُهِرَت بظلمها مسلمي الأندلس بأنها لم تستحم في حياتها إلا مرتَين، لأن المسيحية المحرفة كانت ترى أن الاستحمام والنظافة تعني إعطاء قيمة للدنيا. وكانت الرائحة الكريهة تفوح من الملكة إيزابيلا التي كانت كاثوليكية متعصبة.

وكانت النساء المتزوجات المتديِّنات أيضًا يعتقدن بهذه الحماقة، فصار الأزواج يتركون نساءهن ذوات الروائح الكريهة بسبب هذا التعصب الديني، ويميلون إلى البغيَّات لأنهن كنَّ يستحممن، فراجت الفاحشة في المجتمع، وأفسد مرض الزنا الذي يدمِّر الأُسَر القلوبَ والأجيال.

فهذا مثال لدين مُحرَّف من صنع البشر!

إن المسيحية تُحرَّف بدءًا من بولس ويستمر تحريفها اليوم بضغط من الربوبيِّين.

فكم من العجيب أن نسمع أن بعضًا من الكنائس في بلدان مثل هولندا تعقد نكاح رجلَين، مع أن الكنيسة كانت لوقت قريب تعارض هذا الأمر. أي إن الكنيسة تيسِّر ذنبًا من أعظم الذنوب التي تجعل الإنسان في أسفل سافلين. فهل يمكن تيسير الذنوب والعصيان تحت مُسمَّى الزواج؟ وهل هناك أشد حماقة من تزويج الإنسان بالسوء؟

وهل يكون دين بلا مبدأ ولا شخصية ينحني دائمًا أمام الضغوط؟ وهل يمنح مثل هذا الدين السعادة للمرء؟ كلا بلا شك.

وليست اليهودية ببعيدة عن المسيحية، فهي أيضًا صارت لعبةً بيد المُحرِّفين. وقد صارت عدوًا للإنسانية وجعلت الظلم دينًا من أجل خدمة عِرق من أعراق البشر.

لقد ابتعدت اليهودية عن الحقيقة كثيرًا حتى ما عادت قادرة على دعوة الناس إليها. وبات هذا الدين خاصًّا بأبنائه...

واحتلت الخرافات ثقافاتهم الشفهية والكتابية. وحُرِّف ما بقي في أيديهم من التوراة والزبور تحريفًا كبيرًا حتى إننا لنجد في تلك الصفحات المُحرَّفة اتهام الأنبياء بمصارعة الرب- والعياذ بالله- والكفر والزنا.

وحُرِّفت العبادات أيضًا في هذا الدين، وطقسُ الكفَّارة (الكاباروت) مثالٌ واضحٌ لهذا التحريف. فهذا الطقس تؤديه جماعة متعصبة من اليهودية التي انقسمت مثل المسيحية إلى طوائف: وفيه يأخذ اليهودي دجاجة قبل يوم من عيد الغفران، ويُدوِّرها فوق رأسه ثلاث مرات وهو يقرأ أدعية، ثم يذبحها، فتُمحَى بذلك ذنوبه!

ويعترف هؤلاء اليهود أنه لا أصل لهذا الطقس. فقبل هدم هيكل سليمان كان اليهود يُحمِّلون ذنوبهم لماعز ثم يتركونه في الصحراء فيتخلصون من ذنوبهم! وهو كما نُطلق عليه اليوم «كبش الفداء» تعبيرًا عن إلقاء المسؤولية على شخص بريء. لكن بعد هدم الهيكل اتخذوا دجاجةً بدلًا من الماعز لهذا الطقس!

فنرى في هذَين الدِّينَين المُحرَّفين أن التخلص من الذنوب متعلق بأسباب بسيطة. أما في الإسلام فإن الذي يعفو الذنوب هو الله تعالى وحده، ولا يستطيع الإنسان أن يكون على يقين تام بهذا العفو في الحياة الدنيا، فيستغفر الله تعالى ويلجأ إليه حتى خروج أنفاسه الأخيرة.

وهنا أودُّ أن أنقل حادثة سمعت عنها من فم المفكِّر نجيب فاضل قيساكوراك:

اقترب المؤرخ وعالم الاجتماع المشهور توينبي من متسوِّل غريب أثناء زيارته لمصر وسأله: «لو أعطيتك نقودًا، فماذا تفعل؟»

فأجاب المتسول: «أدعو الله لك».

فسأل توينبي: «وهل يقبل الله دعاءك؟»

فقال المتسول:

«يا سيد، أنا أدعو، ولا أتدخل بالإجابة. إنْ شاء الله، قبِل دعائي، وإنْ لم يشأ، لم يقبله».

فقال توينبي:

«يخبرنا قساوستنا المتعلِّمون بأنهم يمحون ذنوب الناس وهم مثلهم. ولكن أغرب الناس في هذا الدين يقول: (إنْ شاء الله، قبِل دعائي، وإنْ لم يشأ، لم يقبله)».

فهذا هو الفرق بين الإسلام والأديان المحرَّفة...

ومن الأمثلة الأخرى أن قسيسًا سُئِل: «ماذا على الإنسان أن يفعل حين يرتكب ذنبًا؟»

فقال: «عليه أن يأتي إلى القسيس ويدفع المال ليمحو ذنبه».

فقيل: «وماذا إنْ ارتكب الذنب مرة أخرى؟»

فقال: «يأتي مرة أخرى، ويدفع مرة أخرى، فيمحو القسيس ذنبه».

فقيل: «وماذا إنْ كان في الذنب هضمًا لحقوق العباد؟ كيف سيمحو القسيس هذا الذنب؟»

فسكت القسيس...

وهنا ندرك أن مسألة محو الذنوب في المسيحية حماقة كبيرة!

كيف لعبد أن يمحو ذنب عبد مثله ارتكبه أمام الله تعالى؟ أي مظلوم سُرِق أو ارتُكِبت بحقه جناية يقبل أن يُعفَى عن ظالمه من غير أن يُعاقَب؟ مَن يرضى أن تُعطَّل القوانين؟

فهذي التناقضات تُبعِد الناس عن الأديان المحرفة.

وهؤلاء الذين ينأون عن الإيمان لوجود التعارض في الأديان المحرفة لو أنهم يهتدون إلى الإسلام الدِّينِ الحق، ويرون أن هذه التناقضات ليست في هذا الدين المبين وأنه دين كامل متكامل، لما تعصَّبوا ولنالوا السعادة والسرور في الدنيا والآخرة.

وأما الأديان في الشرق الأقصى فبعيدة أشد البعد عن العقل السليم.

- نظام طبقي معاد لحرية الإنسان، وعادات وأعراف ظالمة.
- تناسخ للأرواح لإنكار الآخرة، أي فكرة عبثية ليس فيها من المنطق شيء، ولا تخدم العدل والحق.
- «ميستيسزم» بلا غاية، وعبادة للأصنام، ووثنية، ومعابد في القذارة...
- أساطير وخرافات ليس فيها خالق ولا آخرة...
- بُعدٌ عن المنتجات الحيوانية، وبقايا عادات تشبه التأمل والرياضة مثل اليوغا، وتعطي للإنسان شيئًا من الراحة النفسية، ولكنها جميعًا معتقدات بلا رب ولا قِبلة ولا غاية، ومحال أن يجد الإنسان فيها السعادة.

وثمة أديان باطلة في مناطق أخرى من العالَم مثل أفريقيا حيث الأديان شبه الوحشية وفيها يُضحَّى بالإنسان، وتُعبَد الحجارة...

وليس ثمة دين- غير الإسلام- يقدم وصفة سعادة للإنسان، ويجد الحلول للفرد والأسرة والمجتمع والاقتصاد والوالدَين والأولاد والشيوخ والفقراء والمحتاجين.

ولعل مثل هذه الأديان كانت سليمة في أصلها قبل قرون، ولكنها صارت تخاطب جانبًا أو جانبَين من الحياة بعد تحريفها.

وليس من الصواب النظر إلى مثل هذه الأديان ورفض فكرة الدين جملةً وتفصيلًا.

فالإسلام هو الدِّين الحق، وليس في الإسلام أحكام ظالمة ولا ممارسات غير منطقية ولا تطبيقات لا يؤديها غير الحمقى.

ولم يتعرض الإسلام للتحريف، وليس فيه مَن يتكلم باسم الله أو يضع عقيدة أو يُحِلُّ أمرًا أو يُحرِّمه، فالإرادة في الإسلام لله تعالى.

وكلُّ أمر في الإسلام يستند إلى القرآن كلام الله والسُنَّةِ أحاديث رسول الله وأفعاله وتقريراته.

ولا يستطيع علماء الإسلام القياس على أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية إلا في المسائل المُستحدثة، ولا يستطيعون الاجتهاد إلا في المصالح التي توافق روح القرآن والسنة.

وثمة اليوم هجمات عنيفة على الإسلام لأنه يُنظِّم جميع جوانب الحياة ويسدُّ الباب في وجه النفسانيَّات، لذلك زُرِعَت في الأذهان المخاوف التي يشير إليها مصطلح «رهاب الإسلام». وافتُرِيَ على الإسلام لتشويه صورته والوقوف بينه وبين الناس، على الرغم من أنه يقي المؤمن من جميع المخاوف الفانية ويُطمئنه ويهديه إلى الجنة.

والأديان والمعتقدات الأخرى تبالغ في التسامح مع الإنسان لأنها لا تفرض عليه أي مسؤوليات تشكِّل هويته.

إن الإنسان عدو ما يجهل. وكثير ممن يُعادون الإسلام لا يدرسونه ولا يبحثون فيه كما ينبغي.

وخلاصة الكلام أن الإسلام يشمل جميع جوانب الحياة، ويجيب عن كل سؤال يطرحه الإنسان كي يفوز بالسعادة في الدَّارَين، ولن نجد أي تناقض بين هذه الأجوبة، بل هي أجوبة منطقية كافية وافية. ويمكن أن نصف هذه الأجوبة بأنها ذات جناحَين، أي تضمن السرور والفوز لصاحبها في الدنيا والآخرة.

وثمة اليوم أي في عصر الجاهلية الحديثة الذي يُنسي الآخرة فكرةُ الدِّين المعتدل المحبوس في الضمير وأماكن العبادة والمكوَّن من مجموعة من الأخلاق.

وثمة أفكار باطلة مثل «الربوبية» البعيدة عن الشريعة وأحكام الدين، وهناك مَن يدَّعي جهلًا أن أحكام الدين لا تصلح لهذا الزمان.

إن دين الإسلام لا ينظِّم عبادة المُكلَّف فحسب، بل ينظِّم جميع مجالات الحياة على أفضل صورة، من الفرد إلى الأسرة، ومن الأسرة إلى المجتمع، ومن الحياة الخاصة إلى الأزقة والساحات والميادين، ومن الطعام والشراب إلى الاقتصاد. ويضع أحكامًا لجميع أفعال المكلَّفين.

ويكفل الدِّين إدراكنا للغاية من خلق الكون والإنسان، ويُنظِّم حياة المرء من المهد إلى اللحد بأدق التفاصيل، حتى النفَس الذي يتنفسه والخطوة التي يخطوها...

والدِّين مجموعة من القواعد والقوانين التي تمنح المرء الراحة والطمأنينة في الدنيا والفوز والسعادة في الآخرة.

## ثقافة القرآن الكريم

إن القرآن الكريم المصدر الأساسي للثقافة الحقيقية الأصيلة. ونستطيع أن نطالع العلوم التي يحتويها القرآن الكريم تحت خمسة عناوين هي:

### ١. علم الأحكام

- يُعلِّم القرآن أسس العقيدة وأركان الإيمان الصحيح.
- ويُبيِّن أحكام العبادة.
- ويعظ بقواعد الأخلاق.
- ويوضِّح الخصال السيئة التي تُبعِد العبد عن رضا ربه، أي الحرام الظاهر والباطن.
- ويضع الأحكام التي تنظِّم المجتمع، أي الفرائض الظاهرة والباطنة.
- ويحض على التنظيم الاقتصادي والمالي وعلى المبادئ العامة للحقوق.
- ويقدِّم أحكام الأسرة.
- ويميط اللثام عن الحقوق في الحرب.
- ويحدِّد حقوق الأسرى.
- ويرتقي بالعقل من خلال التسليم بما جاء في الكتاب والسُّنَّة، ويُطمئن القلب.

### ٢. علم الجدال

يردُّ القرآن الكريم على الادعاءات التي لا توافق عقيدة التوحيد، ويبيِّن زيف الباطل ومساوئ التحريف.

### ٣. الآيات في الكون

يحث القرآن الكريم الإنسان على التفكر ببيان نِعَم الله تعالى. ويوضِّح للمرء إبداع الله في الأنفس والآفاق، فيوصِله من الصنعة إلى الصانع، ومن السبب إلى المُسبِّب، ومن الأثر إلى المؤثِّر.

### ٤. العِبَر من القصص

يُبيِّن القرآن الكريم تدخُّل الله تعالى في تاريخ الإنسان، ويدعو الناس للاعتبار من خلال سرد قصص الأنبياء، ومشاهد من حياة أهل الكتاب، وهلاك أقوام مثل سدوم وعمورة وغيرهم.

والقرآن الكريم أعظم مصدر لسيرة نبينا أسوتنا الحسنة.

### ٥. الموت وما وراءه

يعرض القرآن الكريم لنا حقيقة وجود الموت وما بعده من مراحل، ويُعِدُّنا للحياة الأبدية، ويُرشدنا إلى الطرق التي يغدو فيها المرء مرضيًّا لله تعالى كي يأمن من أهوال يوم القيامة.

إن جميع ما ذكرناه هنا يوضِّح لنا «ثقافة القرآن»، فندرك أن أعظم ثقافة هي ثقافةُ القرآن. والإسلام كما أنه يُنير ماضي الإنسان وحاضره، يرشده أيضًا في مستقبله.

والمرشد الوحيد لنا في هذه الثقافة التي تشمل جميع جوانب الحياة إنما هو نبينا الكريم محمد ﷺ. والذين تشبَّعوا بهذه الثقافة على أفضل صورة من رسول الله ﷺ هم الصحابة الكرام و«أولياء الله».

ليس الإسلام أيديولوجية، ولكنه فوق جميع الأيديولوجيات. هو وجهة نظر حقيقية كاملة إلى الدنيا تمنح السعادة للفرد والمجتمع في الدارَين.

إن كل حضارة تضع نمط إنسان خاص بها، أما حضارتنا فحضارة القرآن والسُّنَّة، لذلك كان عصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم وخلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله من ألمع صفحات التاريخ البشري.

والحقُّ أن أشد الناس طمأنينة في الدنيا أهلُ الإيمان الحقيقي، فالله تعالى يهب حال الطمأنينة لعباده الصالحين، فيظلون في طمأنينة حتى في أصعب الأحوال وأشد المصائب.

إن الإيمان والتقوى يمنحان المرء طمأنينة تجعله يرى الجميع بعين الرأفة والرحمة، فيغدو مثل حبيب النجار الذي كان يدعو ربه ليعفو عمَّن يرجمه.

وقد نقلت الروايات لنا جميع الأحداث التي جرَت في عهد النبي ﷺ، ولا نجد في هذه الروايات أي مشكلة نفسية لدى الصحابة الكرام، فقد كانوا يعيشون في طمأنينة وسط ما يعانونه من مشقات ومِحِن...

أما الغافلون والزنادقة فنراهم في اضطراب وبُعد عن حال الطمأنينة على الرغم من الرفاه المادي الذي يعيشون فيه، ولذلك نراهم يزورون الأطباء النفسيِّين.

أي إن الإنسان كلما تمسك بحبل هذا الدين المبين، فسيحيا في طمأنينة وانشراح صدر وإنْ كان في أشد الابتلاءات والمِحَن، ولكنه كلما ابتعد عن هذا الدين المبين والأخلاق السامية، اسودَّت حياته وغرق في مستنقع المشقات.

وهكذا تكون حال باطن الإنسان...

ينحرم من الطمأنينة في كل شيء، ثم يميل إلى القتل أو الانتحار أو السرقة أو المخدرات أو الشذوذ الجنسي، ومن الطبيعي حينئذ أن تزول الرحمة من قلوب أمثاله، وينجر إلى الساديَّة. وهذا السبب الأصلي لما يُرتكَب من ظلم في بلدان شتى من العالَم الإسلامي مثل فلسطين وسوريا واليمن وميانمار...

إن الطمأنينة أولًا وآخرًا في الإسلام، في الدِّين الحق، في العيش بإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات والتحلي بالتقوى والأخلاق الحميدة.

الطمأنينة في الإيمان بيوم الآخرة حين يُقَام العدل المطلَق، ولا يُغادَر أي ظلم مهما كان صغيرًا.

الطمأنينة في تحقيق الغاية من الخلق.

## الشريعة المُيسَّرة والفطرية

وضع الله تعالى شريعة مُيسَّرة في الإسلام الذي أكرمَ به عباده بآخر الكتب السماوية وخاتم الأنبياء.

إننا نفهم من آيات الكتاب الحكيم أن الله تعالى فرضَ أحكامًا أصعب لبني إسرائيل لِما اقترفوه من ذنوب وسيئات، فهو تعالى مثلًا:

- حرَّم عليهم عمل أي شيء يوم السبت.

- وحرَّم عليهم أكل كل ذي ظفر مثل الجمل.
- وحرَّم عليهم شحوم الحيوانات مثل البقر والغنم.

ويُروَى أيضًا أن:

- الزكاة المفروضة عليهم كانت الربع.
- والصلوات المفروضة كثيرة.
- والغنائم محرَّمة.
- والعبادات لا تُؤدَّى إلا في المعابد.
- والنجاسة إنْ لم تُزَل بغسلها، وجبَ قص الجزء الذي أصابته نجاسة من الثياب.
- وأنه ثمة ذنوب يجب على المرء قتل نفسه ليتوب.

وقد أطلق القرآن على هذه الشريعة اسم «الإصر»، وعلَّمنا أن ندعو ربنا بدعاء:

**﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾** [٦٤]

وسُمِّيَت الشريعة الإسلامية باسم «الشريعة السمحاء» بفضل رحمة الله تعالى القائل في كتابه العزيز:

**﴿...وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ...﴾** [٦٥]

ففي ديننا العظيم تيسير في كثير من الأحوال المعذورة مثل المرض والسفر، فقد بيَّن الله تعالى في كتابه العزيز وجوب صيام شهر رمضان، وأذِن لَمن كان مريضًا أو على سفر ألا يصوم ويقضي بعد رمضان، ثم قال:

**﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾** [٦٦]

وقال تعالى في الآية التي تأمر بالتيمم عند تعذر إيجاد الماء:

**﴿...مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** [٦٧]

---

٦٤. البقرة: ٢٨٦.

٦٥. الحج: ٧٨.

٦٦. البقرة: ١٨٥.

٦٧. المائدة: ٦.

## الأديان والحروب

يتهم الملحدون والربوبيُّون الأديانَ بأنها سبب الحروب على مدى التاريخ، ويصوِّرون الدِّين على أنه أمرٌ ضارٌ يزرع الحقد والكره بين الناس ويحرِّضهم على الاقتتال.

لا بد أن نوضِّح هنا أن الطمع جانب فطري، وأن سبب إكرام الله تعالى الناسَ بدين الإسلام إنقاذهم من الظلم والجهل الموجودَين في فطرتهم.

فأول جريمة ارتُكِبَت في تاريخ البشر كانت قتلَ قابيل أخيه هابيل الذي كان تقيًّا وقال:

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ...﴾ [68]

لقد شبَّت الحرب بين الناس لحرصهم على الحُكم وغصب ما يملكه غيرهم من أموال وأمتعة. وقد استُعمِلت الأديان المحرَّفة وسيلة لتحقيق المطامع والغايات.

إلا أن الدِّين الحق وقف في وجه الظلم والغصب، وأمرَ بالحرب عند الضرورة لمنع الفتنة والظلم، وإقامة الحق والعدل. وكان رسول الله ﷺ إذا أمرَ بالحرب، نهى عن قتل الأولاد والنساء والشيوخ وأصحاب الصوامع، وعن حرق الناس وقطع جذور الأشجار.[69]

إن مَن يُقلِّب صفحات التاريخ بعين الإنصاف، لا يستطيع أن ينكر مراعاة المسلمين لحقوق الحرب، وسعادة الناس بدين الإسلام في البلدان المفتوحة، وحرية الدين والعقيدة في مناطق الحكم الإسلامي، والأمن والأمان في المجتمع.

ولننظر في تاريخ الحروب:

كان البابا يُجهِّز الحملات الصليبية. نعم، ولكن الدافع لهذه الحملات كانت السلب والنهم أكثر من الدافع الديني.

ولا شك أن المسلمين كان لهم الحق في الدفاع عن أنفسهم أمام هذه الحملات الظالمة.

---

٦٨. المائدة: ٢٨.

٦٩. انظر: أحمد، ١، ٣٠٠؛ الطبراني، الكبير، ١١، ٢٢٤/ ١١٥٦٢؛ البخاري، الجهاد، ١٤٨؛ مسلم، الجهاد، ٢٤، ٢٥؛ الطبراني، الأوسط، ١، ٤٨/ ١٣٥؛ ابن ماجه، الجهاد، ٣٠؛ الواقدي، ٣، ٩١٢؛ عبد الرزاق، مصنف، ٥، ٢٢٠.

وقد انتقد الأديب والشاعر ماهر إيز المفكِّرَ توفيق فكرت الذي كان يعارض الحروب من منطلق حسي لا منطقي، فقال:

«ثمة صنفان لجنس الإنسان، أحدهما حسن، والآخر سيئ. فأما الذي يمثِّل الإنسان الحسن فهو (هابيل)، وأما السيئ فهو (قابيل). وهذان الصنفان ما فتئا يتصارعان منذ خُلِق الكون. وجميع الأحكام في الأديان تطلب أن يكون المرء في جانب هابيل. [...] لم يستطع البشر أن يعيشوا على الأرض من غير سفك للدماء، وثمة آلاف الأحداث الكبرى في التاريخ. وثمة مظلومون يُرأَف بهم ويحتاجون إلى الحماية في هذه الأحوال. وإذا كان وجود الظالمين أمرًا فطريًّا، وكانت الأديان والقوانين جميعها تحمي المظلوم وتعاقب الظالم، فإن الهجوم على فكرة الحرب والقائد ما هو إلا ضعْف حِسِّي».[٧٠]

وإذا أردنا أن نوضِّح الفكرة أكثر، فلنا أن نتساءل: أليس من الظلم النظر إلى الحروب جميعها من وجهة نظر واحدة؟

هل الحروب من أجل الاحتلال كالحروب من أجل المحافظة على النفس والأهل والدين والوطن والمال؟

إن الصراع قائم دائم في دار الابتلاء بين الخير والشر، والحقِّ والباطل. هذا الصراع باق ما بقيَت الحياة على هذه البسيطة. ورفع شعار «لا تحاربوا! لا تأذنوا للدين بالحرب» في مثل هذه الأحداث حيلةٌ تنفع العدو.

هل يعيب الربوبيُّون الناس على مقاومتهم أعدائهم الذين يسعون لاحتلال أوطانهم؟

أم أن الربوبية فكرة وُضِعَت لتحث الناس على التراخي والسلبية والعبودية كي تكون أراضي الإسلام الحرة مفتوحة لاحتلال الغرب؟

وقد رأينا حقيقة الغرب بعد الحرب العالمية الأولى حينما تكالبوا على بقعة الإسلام لنهب ثرواتها النفطية.

ومن المحال تحميل الإسلام مسؤولية ما يحدث اليوم من فساد في الأرض، بل إن أساس هذا الفساد حروب المصالح والمنافع التي تخوضها الأنظمة البشرية من رأسمالية واشتراكية وفاشية ومادية وصهيونية وغيرها.

---

٧٠. Mahir İZ Üstadım Mehmed Âkif [Haz. Ertuğrul DÜZDAĞ] s. 51

والقنبلة الذرية التي تُعد من أفتك أنواع الأسلحة لم ينتجها أهل الدين، بل أهل العلم الحديث الذين يدَّعون العقلانية والمنطق، واستعملتها الدول التي ترفع شعار الديمقراطية وحقوق الإنسان.

لقد قُتِل الأبرياء والشيوخ والنساء والأطفال والرُضَّع والبهائم والأشجار في ذلك المكان الذي أُلقيَت القنبلة عليه.

وهنا نسأل مَن يدعي أن الأديان تحرِّض على الحروب: هل كان هناك أي سبب ديني صغير للحرب العالمية الثانية التي قُتِل الملايين فيها؟

هل كان لهتلر أو موسويلني أي غاية دينية؟

هل كان ستالين الذي كوَّم جماجم مئات الآلاف من خصومه يدين بدين؟ أم كان عدوًّا للدين؟

إن المسلمين مظلومون مقهورون منذ نحو من قرنين. والسبيل الوحيد لنجاة الفرد المسلم والمجتمع المسلم إنما هو عيش الإسلام كما ينبغي.

وكلمة الإسلام مُشتقة من «السلام». والإسلام يجعل السلام والصلح لا الحرب أساسًا له.

ومما يدَّعيه الربوبيُّون أنه:

## لا حقيقة مطلقة!

فيقولون: «كل إنسان يتبع دين مجتمعه ودين والدَيه. ولا حقيقة مطلقة. فكل واحد يجد نفسه على حق...»

وفي هذا الادعاء إضلال كبير. ويمكن أن يكون الحديث الآتي بداية جواب على هذا الادعاء:

**«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه».**[٧١]

فيوضِّح رسول الله ﷺ في هذا الحديث السبب الفطري الذي يجعل الناس يعتقدون بسهولة عقيدة مجتمعاتهم. أي إن فطرة الإيمان موجودة لدى كل إنسان، لذلك يسهل عليه الإيمان بما يؤمن به أهله ومجتمعه.

---

٧١. أبو داود، السنة، ١٨/ ٤٧١٤؛ الترمذي، القدر، ٥.

فإذا استطعنا نحن المسلمين أداء واجبنا في التبليغ والدعوة، فلن يبقَ أحد على وجه الأرض جاهلًا بالحق والحقيقة. وبهذا الدافع انطلق الصحابة الكرام ليبلِّغوا دين الإسلام في أرجاء الأرض على قلة إمكاناتهم، فوصل الإسلام في مدة قصيرة إلى حدود الصين والهند وإندونيسيا شرقًا، وشبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا) غربًا، والبلقان والقفاس شمالًا، وأواسط أفريقيا جنوبًا.

ولا شك أن مسؤولية مَن لم يُبلَّغوا بدين الإسلام أخف، ولكنهم مُكلَّفون بالإيمان بالله وعدم الشرك به.

وقد وضعَ العالِمِ الإسلامي ابن طفيل مؤلفًا سمَّاه (حي بن يقظان) وفيه يصف كيف يصل ولدٌ كبُرَ وحيدًا على جزيرة إلى الإيمان بالله تعالى. واستوحى دانيال ديفو روايته (روبنسون كروزو) من هذا المؤلَّف.

أما اليوم فنجد أن تأثير الوالدَين والمجتمع على الفرد لم يعد تأثيرًا كبيرًا، لأن وسائل التواصل الحديثة من إنترنت وتلفاز وغيرها صارت تُستعمَل أيضًا في المجالات الإيجابية، فعدد الذين يصلون إلى الحقيقة السامية ويعتنقون الإسلام بعد بحث عبر «الإنترنت» ليس بالعدد القليل.

فمثلًا كان شاب من هايتي التي تقع في قارة أمريكا الشمالية يبحث عن حقوق المرأة في «الإنترنت»، فصادف ترجمة إنكليزية لإحدى كتبنا، فكان ذلك الكتاب وسيلة لهدايته إلى الإسلام، وحمل اسم «داوود». وثمة مئات من قصص الهداية، ولعل من أشهرها قصة محمد علي، ومالكوم أكس، ويوسف إسلام وغيرهم.

نجد اليوم مساجد للمسلمين في أرجاء الأرض، وهذا يعني أن المجتمع أو الثقافة أو الأسرة ليست عائقًا أمام البحث عن الحقيقة وإيجادها.

وهنا لا بد أن نذكِّر بالأمر الآتي: ينطلق الإنسان أحيانًا في سفر بحثًا عن رزقه، وقد يسافر إلى بلدان أخرى طلبًا للعلم أو اللهو أو غايات أخرى.

إذن ألا ينبغي للإنسان أن يسعى للبحث عن الدين الحق؟

هل الحقيقة محصورة في مجتمعه ووالدَيه؟

على الإنسان مهما كانت ظروفه أن يتفكر ويسأل الأسئلة الآتية ويسعى لإيجاد أجوبة عنها:

- لماذا جاء إلى الدنيا؟
- في مُلكِ مَن يعيش؟
- لماذا يرى كلَّ هذا القدر من تجليات العظمة في هذا الكون؟

على الإنسان أن يجد الحقيقة حيثما كان.

أما الذين جاؤوا إلى هذه الدنيا في مجتمع إسلامي ولوالدَين مسلمَين مُتَّقيَين، فعليهم أن يدركوا عِظَم هذه النعمة ويعيشوا حياتهم شاكرين الله تعالى عليها، وداعِيَن الله تعالى للمؤمنين الذين يبلِّغونه حقائق هذا الدين.

ونجد أحيانًا إنسانًا يختار دين الإسلام وهو في مجتمع مسيحي أو بوذي، ونجد مسلمًا يمسي ملحدًا مع أنه يعيش بجانب مسجد، ونفهم من هذا أن الإرادة الشخصية أشد تأثيرًا من الوسط المحيط في موضوع الإيمان.

وهذا يعني أنه لا بد من تبليغ الإسلام للقريب والبعيد بالتحلي بشخصية مثالية، حتى يهتدي المحرومون من الهداية...

أي لا بد من السعي الدؤوب لنكون وسيلة لهداية القلوب المحرومة من الهداية بذِكر صفة الله تعالى "الهادي".

نسأل الله تعالى أن لا يحرمنا من الهداية بلطفه وكرمه ويجعلنا وسيلة لهداية الناس.

آمين!






# أسلوب التبليغ



يأمر الله تعالى بالقول اللين أثناء تبليغ الدين كي يهتدي الناس، ويبيِّن في كتابه الكريم أهميةَ هذا الأمر بقوله:

**﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** (النحل: ١٢٥)

وهذه المجادلة إنما هي لفتح أبواب القلوب للهداية.

# أسلوب التبليغ

حاولنا في هذا الكتاب أن نعرض ماهية الربوبية، ومن أين نشأت، وأسبابها المادية والمعنوية، والأسئلة التي تطرحها لتحيير العقول. ونود هنا أن ننبِّه القرَّاء إلى أمر مهم:

إن الأساس في العقيدة: «العمل ليس جزءًا من الإيمان».

أي إن التقصير والذنوب والفرائض المتروكة توقِع الضرر الكبير على روحانية المرء، ولكنها لا تُزِيل الإيمان، ولا تحمله مباشرة إلى الكفر.

لكن المبالغة في هذه الفكرة، أي إذا سارَ المرءُ في طريق «فرقة المُرجِئة» التي تقول مثلًا: «العيش كغير المسلمين وارتكاب المعاصي والمحرمات لا يُضِرُّ بالإيمان، وبحسب المرء طهارة قلبه»، فليعلمْ أن هذا الطريق طريق باطل أيضًا.

ولا بد من إرشاد هؤلاء الغافلين، وإيجاد أقرب طريق لتنوير قلوبهم بالحقائق وهدايتهم، فالإبرة إنْ حُقِنَت في غير الوريد الذاهب إلى القلب أضرَّت بالجسم.

فسيدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مثلًا حينما وجد الفرصة لتبليغ الإسلام لنجاشي الحبشة، وطُلِبَ منه قراءة آيات من القرآن، بحث عن طريق يحمله إلى الجانب الروحاني لمخاطَبيه من النصارى، فقرأ عليهم الآيات التي تذكر ولادة سيدنا عيسى من سورة مريم، فأثَّرت تلك الآيات في النجاشي تأثيرًا عظيمًا، ويُروَى أنه أسلم ساعتئذ أو بعد حين.

وكان جعفر رضي الله عنه قادرًا على قراءة آيات تُنذر الكافرين، لكن هل كان سيؤثِّر بها في مخاطَبيه؟

فهذا يعني أنه على أهل التبليغ التحلي بالبصيرة، فيبلِّغوا انطلاقًا من نقطة مشتركة تدعو الناس للتفكر في عظمة الخالق وقدرته وإبداعه في الكون.

إن دحض كلَّ فكرة تنكر الحق تعالى علميًّا ودينيًّا وفكريًّا واجب على كل مسلم. لكن ينبغي تجنب استهداف شخصية الغافلين مباشرة ووصفهم بصفات سيئة وحشرهم في خانة معيَّنة. أي إن تفنيد أفكارهم الخاطئة صواب، أما تحقيرهم فليس من الصواب، إذ لا يمكن أن تشرق شمس الحقيقة على القلوب باستفزاز النفوس.

أي على الداعي ألا يُجبِر المخاطَب على قول: «إذا كان عدم عيش الدين ربوبية، إذن أنا ربوبي!»

فلا بد من المداومة على الإرشاد، والالتزام بالتدابير المعنوية، والدعاء، والتفاؤل.

ولا بد من الحذر لدى مخاطبة الشباب الذين تُعرَض عليهم دعاية الربوبية لجهل منهم أو الذين إذا دُعوا إلى العبادة والطاعة قالوا لغفلة منهم واتباع للهوى: «أنا ربوبي».

ينبغي لنا أن نُعلِّم أمثال هؤلاء حقيقة الربوبية، وكيف أنها إلحاد بقناع الربوبية.

ومن المعلوم أننا إذا تركنا سنوات الشباب بطاقاتها من غير استفادة من هذه الطاقات، غدت طيشًا ورعونة. ولا ننسى أنه قد يصدر من الشباب الذين يخالطون الغافلين مثل هذه الألفاظ من غير تفكير ردًّا على أهاليهم وانطلاقًا من عاطفة لا قصدًا وعمدًا. أي تكون أحوالهم تلك مؤقتة لا دائمة، فإذا كانت هناك مبالغة في الرد على أحوالهم تلك، باتت أحوالًا دائمة، وكان ذلك غفلةً من الداعي.

ويمكن هنا دعوتهم إلى التفكر والتأمل، فالدعوة والتعليم يقتضيان الصبر والثبات. ولا يمكن أن نجرَّ النهر إلى قمة جبل أمامه، ولكننا نستطيع أن نجعله يدور حول ذلك الجبل. وقد يكون هذا الطريق طويلًا مليئًا بالصعوبات والمشقات، ولكنه يوصلنا إلى النتيجة المطلوبة والغاية المنشودة.

قد يستثقل المرء ذو الإيمان الراسخ الذي عاش في مجتمع مسلم سماعَ كلمات الإنكار، ولكن ينبغي له ألا ينسى أن نبينا الكريم أسوتنا الحسنة قد دعا الناس إلى الإيمان طوال حياته. فقد خاطب المشركين والجاهلين ودعاهم للإيمان في موسم الحج والمسجد الحرام وفي الطائف التي عانى فيها الكثير. بلَّغهم الإسلامَ، وقرأ عليهم

آيات من القرآن، ودعاهم للتفكر، وبيَّن لهم كيف تعود الحياة في الربيع بعد الشتاء مثالًا للبعث بعد الموت للذين أنكروا الآخرة، وبلَّغهم بأقواله وأفعاله وأحواله كلها.

فإذا اعتصمنا بحبل الإسلام بإخلاص وتقوى ومحبة، استطعنا- بإذن الله- أن نشعل قنديل المحبة في قلوب أولادنا وطلابنا ومخاطبينا.

إن الإيمان عمل القلب، فلا يكفي الإيضاح العقلي والمنطقي وحده لتنوير القلوب.

يُسأَل شبابنا اليوم أسئلة تحيِّر العقول وتعكر صفو الأذهان.

ونحن علينا أن نسأل أسئلة معنوية تحرِّك الضمير وتحيي المشاعر:

## أسئلة تنتظر الإجابة

– هل تشعر أنك مختلف عن المخلوقات الأخرى حين تنظر إلى هذا الكون الفسيح؟

– ألا تشعر في قلبك بأي شك حول كذبة أن هذا المخلوق العجيب الذي يُسمَّى بالإنسان ليس إلا نتيجة مليارات من سلسلة من المصادفات؟

– هل تقبل قلبًا بأن الذي يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات تطوره الحيوي والذهني؟

– هل تتفكر في هذه الحياة؟ ألا يخطر في عقلك ضرورة أن يكون لمجيئك إلى هذه الدنيا ورحيلك عنها سبب وغاية؟ هل كل شيء محض مصادفة؟

– كان عدد سكان الأرض قبل ألف سنة نحوًا من خمسة أو ستة ملايين، ووصل هذا العدد إلى مليار ونصف سنة ١٩١٥، أما اليوم فبلغ ٧ مليارات. وثمة مخلوقات كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحصَى. وكل هذه المخلوقات تحتاج إلى الرزق، وكلها تُرزَق من غير تأخير. فمَن يرزق مليارات المخلوقات رزقًا مقسومًا على اختلاف أنواعها وحاجاتها؟ ألا ينبغي التدبر في هذا الأمر بعقل منصف؟

– يُكرِم الله تعالى مخلوقاته كل فصل وفقًا للجغرافية التي يعيشون فيها. فلا يترك الذين في القطبَين المتجمِّدَين أو خط الاستواء أو الصحراء جوعى. فيخلق في الصيف ثمارًا مثل البطيخ تُذهِب العطش، وفي الشتاء ثمارًا أخرى مثل البرتقال الذي

يحتوي على الفيتامين (سي/ C). أفلا ينبغي التفكر في الحكمة من هذا الأمر وشكر الله على هذه النعمة؟

– تَأمَّلِ الثلوج! تبلغ سماكة الثلج نصف متر أو مترًا، فيصبح التراب كالغطاء الحامي لمخلوقات كثيرة. وعندما يذوب الثلج، لا نرى جيفًا. فمَن الذي يحفظ تلك المخلوقات بغطاء خاص؟

– إن الثلج بلونه الأبيض يُدخِل الفرح في القلوب مثل الأزهار البيضاء، لكن ماذا لو كان لونه أسود كالقطران أو أحمر كالدم، أما كان يُقسي القلب؟

– أثرُ مَن الأساسُ في هذا الخلق العظيم والنظام الدقيق؟ وأثرُ مَن هذا السبب الذي سمَّاه العلماء «المبدأ الإنساني»؟

مثلًا؛

– هل فكرتَ لماذا نسبة الآزوت ٧٧٪ والأوكسجين ٢١٪ في الهواء؟

– هل ترى أحدًا يسير حاملًا إسطوانة أوكسجين خوفًا من أن ينعدم الأوكسجين أو يقل في أي لحظة؟

– أليست الثقة بعدم نقص الأوكسجين لدى المنكرين ثقةً بالقدرة الإلهية؟

– هل كان لديك علم بهذا العالَم قبل أن تأتي إلى الدنيا؟ وإنك سائر الآن إلى عالَم القبر وليس لديك أي علم به، فكيف ستكون فيه؟ ماذا لو ذهبت إليه من غير إعداد له؟ كيف ستكون؟

– لو مُثِّلَت مسرحيَّتان مختلفتان معًا على المسرح نفسه لاختلطتا، لكن انظر إلى مسرح العالَمَ هذا! ثمة مليارات من المسرحيات تُمَثَّل في الوقت نفسه، فلا تجد اختلاطًا بينها. كيف يحدث هذا؟ هل فكَّرت بهذا من قبل؟

– لو كنتَ ربَّ عمل، لحاسبتَ عامِلك على أصغر خطأ يرتكبه! أفلَن يسألك صاحب القدرة المطلقة الذي خلقك من عدم عن عمرك والنِّعم التي أكرمك بها؟

**﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾**[٧٢]

---

٧٢. الانفطار: ٦–٨.

– إنك تقرأ وتطلب العلم، لكن هل تعلم العلم الأساسي؟ هل يطمئن قلبك بالعلم الذي لا يُخبِرك بمعنى وجودك وغايته في هذه الحياة؟ هل تعلم أن العلم الأساسي أن تفهم أمر الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٧٣] فتقرأ عظمته تعالى، وتعرفه قلبًا، وتعيش حياتك شاكرًا إياه على نعمه؟ هل تطلب مثل هذا العلم؟

– هل ثمة ثقافة أعظم وأسلم من ثقافة الإسلام وأكثر منها شمولًا؟ هل يوجد نظام آخر ينظِّم كل مجال من الحياة مثل الإسلام؟

– ما الموت؟ ما الفناء؟ بماذا تخبرك الربوبية عن الموت وعمّا بعده؟ لا أحد يستطيع أن يخبرك عن الموت وما وراءه إلا اللهُ عالمُ الغيب، والأنبياءُ الذين أطلعهم الله تعالى على قسم من الغيب.

– هل ينبغي أن يُتركَ الظلم بلا جزاء؟ أم ينبغي أن يُحق الحقُّ يومًا ما؟ ما رأيك؟

– أليس ادعاء أن العقل يهدي الإنسان في طريقه دائمًا أمرٌ نظريٌّ؟ هل ثمة أدلة على ذلك؟ هل أعان أرسطو عقلُه أمام ضغوطات الإسكندر؟ هل استطاع العقلاء الذين اخترعوا القنبلة الذرية أن يحموها من الوقوع في يد الظالمين الذين رموها على الأبرياء؟

– هل قرأت سيرة الفلاسفة؟ هل تعلم أن حياة أكثر هؤلاء العقلاء الذين يدَّعون وضعهم لنظام لهذا العالَم حياةٌ مليئة بالقبائح والتناقضات والفسق ومحاولات الانتحار والجرائم؟ كيف يفيد عقلٌ لا ينفع نفسه الإنسانيةَ؟

– متى تدرك أن العقل آلة للخير والشر، أي إنه كالسيف ذي حدَّين؟

– تفكَّر في أساس الأخلاق! هل يمكن أن تكون أخلاق من غير الدِّين الحق؟

– هل يستطيع الناس أن يُجمِعوا على الأخلاق القائمة على العقل؟ ماذا ينفع الناسَ نظامٌ أخلاقيٌّ لا يُتَّفَق عليه؟

– لماذا أباح الرأسماليون الذين وعدوا الناس بالرفاه والطمأنينة جميعَ أنواع الشرور قائلين: «دعه يعمل، دعه يمر»، وأطلقوا العنان في الوقت نفسه لنظام «الكارتل» الذي يمص دماء الناس؟

---

٧٣. العلق: ١.

– أين الرفاه والرخاء والسعادة التي وعدَت الرأسمالية بها؟ ليس هناك إلا حفنة من الناس يعيشون في الرخاء والثراء، أما الباقون فتُرِكوا في مهب الرياح.

أي ضمير هذا الذي اسودَّ حتى صار كسواد القطران!

– انطلق الشيوعيون أساسًا واعدين الناس بالمساواة، وأقاموا حكمهم على جماجم ملايين من البشر. فلماذا أطلقوا العنان لأتباع حزبهم فقط في نهاية المطاف؟

– هل لدى الناس أي أمل– ولو كان قليلًا– بالرأسمالية أو الشيوعية؟

– هل ثمة نظام غير الإسلام ينقل المال من الأغنياء إلى الفقراء بالزكاة والإنفاق والصدقة والوقف والكفارة وغيرها من العبادات والواجبات وليس ذلك إجبارًا وإكراهًا بل جزءًا من العبودية لله تعالى؟

– إن عملية الإجهاض أمر مباح وفقًا لكثير من العقول التي لا يحكمها ضمير واع، ووفقًا لأنظمة قائمة على العقلانية! لا بل إنها حق ونوع من الحريَّات! وما هذا إلا أخلاق العقل الذي يرى الجريمة حقًّا...

هل ترضى أن يُقتَل جنين ينبض قلبه لأن أمه لا تريده؟ هل يرتاح ضميرك لمثل هذه الجريمة؟ لو كنتَ أنتَ ذلك الجنين، فهل كنتَ لترضى؟

إن هذا العقل عقل يجتث جذور الأسرة، ويمهِّد الطريق لا بل يحض على الشذوذ الجنسي المخالف للفطرة باسم الحرية.

– وفي مجلس الأمن نجد أن خمس دول لها حق النقض وتستطيع به أن تحمي الظلم إنْ كان يصبُّ في مصالحها. وإدارات هذه الدول قائمة على المادية أو الرأسمالية أو الاشتراكية.

هل ترى مستقبل العالَم أفضل بوجود الإلحاد والربوبية والرأسمالية والعلمانية؟

– أليس كل ما نجده من خراب لا سيما في الطبيعة، وانقراض الكائنات الحية وأسلحة الدمار الشامل والظلم والاستعمار نتيجةً لنظام قائم على العقل والعلم؟

– ما الحل الذي يحفظ العقل من الجنون والوحشية؟

– إذا أردت أن تقيِّم الغرب قبل سكرَتِه في التكنولوجيا والقوة المادية على أساس قيم الأسرة والإنسانية، فهل تستطيع أن تذكر جانبًا تتمنى أن نحاكيه فيه؟

– هل إنسان الأمس أكثر سعادة أم إنسان اليوم على الرغم من الرفاه والرخاء والراحة؟ نعم على الرغم من كل ذلك نجد بلدانًا تحوَّلت إلى بلدان حزن وأسى وأناسًا غرباء أسرى في قبضة الضمائر التي أصابها العمى والصمم!

– هل يرتاح ضميرك بوصفك إنسانًا أمام الظلم الذي يُرتكَب اليوم في سوريا وفلسطين واليمن وميانمار؟ ألا يؤنبك ضميرك؟

– لا بد أنك تعلم ما معنى حادثة مرور أو زلزال أو المطبَّات في الطائرة أو غيرها من الأحداث التي تبعث الخوف... فكيف وجدت الخوف في مثل هذه الأحوال؟ هل شعرتَ بميلك إلى اللجوء أو التوسل إلى موجود قادر على كل شيء؟

– هل تعي فكرةَ وجود أهوال بعد الموت؟

– فكِّر بأولائك الذين يجعلونك في غفلة وضلال في موضوع الدين والعقيدة، هل سينفعونك بشيء حين ترتعد فرائصك؟

– مَن عليك أن تسمع في موضوع الغيب؟

– لقد رحل نبينا الكريم ﷺ إلى الرفيق الأعلى عام ٦٣٢م، لكنه ترك لنا أحاديث شريفة كأنها تصوِّر واقعنا اليوم. فهل من المنطق أن تنكر أقوال مثل هذا الرجل عن الآخرة؟

– لا تستوي التفاحة الناضجة والتفاحة المتعفِّنة، وإذا قلت إنهما سيان، فقد وقعت في خطأ منطقي. فبأي منطق تضع الأديان المحرَّفة ودين الإسلام الحق الذي لم يتعرض للتحريف في كفة واحدة؟

– هل أنت واثق من أن لديك العلم الكافي عن الإسلام؟

– هل من الصواب أن تقتنع بمسألة قبل أن يكون لديك العلم الصحيح بها؟

– تدعي أن لديك العلم، لكن ما مصادر علمك؟ هل تجد العلم الحقيقي في مصادر تشوِّه الإسلام؟

- يا مَن تقول إنك ربوبي:

– هل فكَّرت بالخلود؟

– الخلود في الجنة أم الخلود في النار؟

– هل من المنطق أن تدمِّر آخرتك الأبدية طلبًا للمتعة لأيام في الدنيا؟

– هل تعلم أن العبادات التي يأمرنا الله تعالى بها في الدنيا هي كلها لصالحنا؟

– حينما يختار الطالب فِرعَه في الجامعة، يفكِّر طويلًا ويتساءل: «هل اخترت الفرع الصحيح يا ترى؟» فهل أنت واثق من أنك فكَّرت التفكير الكافي حين اخترت ما يتعلق بحياتك الأبدية؟ أم إنك تتبع الأكثرية؟

– هل يقنعك عقلك بأن الإنسان متروك سُدى في هذا التوازن الطبيعي المعظم من الذرات إلى المجرات وفي هذا الكون الذي لم يُخلَق فيه شيء إلا لحكمة؟

– لو أن النِّعَم والمخلوقات التي سخَّرها الله تعالى لخدمتنا كي نستفيد منها ونتفكر تُركَت سدى وخُلِقَت عبثًا، فهل تساءلت كيف سيضطرب هذا النظام الدقيق في الكون؟ لو كان الأمر كذلك لما استطعتَ ولا غيرك من المخلوقات الحياة على هذه الأرض، ولقضَت المخلوقات بعضها على بعض، وتحول الكون إلى خراب. ولكن انظر وتأمل كيف يسير هذا الكون في انسجام دقيق...

– ماذا يضيركَ لو أنك تتأمل قول الله تعالى:

**﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾** [٧٤]

– مَن يستطيع أن يدَّعي أن الله تعالى لم يتدخل في الكون بعد خلقه؟ هل لديه حجة وبرهان على ذلك؟

– إنْ قلتَ إنه هناك حياة قائمة على قوانين الفيزياء، فمَن الذي وضع هذه القوانين؟ هل أثبت العلم جميع القوانين الفيزيائية حتى يدَّعي أن جميع الحوادث في الكون تجري في إطار تلك القوانين؟

– إن فيزياء الكم تعلم أن هناك أمورًا لا يمكن تقنينها ولا تتضح على أساس السبب والنتيجة، فهل ادعاء أن الله تعالى لا يتدخل في الكون ادعاء سليم؟

– ألا ترى تدخل القدر الإلهي في الأحداث الاجتماعية التي لا تقوم على قوانين الفيزياء، وفي سيرة حياتك، وفي تاريخ المجتمعات؟

– هل ستجد عذرًا حين تُوضَع في حضرة ربك لإنكارك إياه، وتكذيبك أنبياءه

---

٧٤. المؤمنون: ١١٥.

ورسله، وهجرك كتابه؟

- هل تستكثر الواجبات التي أمركَ الله تعالى بها في هذا العمر القصير وقد وعدكَ بجنة عرضها السماوات والأرض؟

تفكَّر وتدبَّر في هذه الأسئلة التي طُرِحَت هنا، واسعَ لتجد الإجابة عنها!

فهذي الأسئلة هي الأسئلة المُتوَّقع أن تجيب عنها. إنْ أسكتَّ نفسك ووَلَّيت وجهك شطر مرضاة ربك بقلب سليم وضمير حيٍّ، فستعلم يقينًا أن الدِّينَ الحق يشرح صدورنا، وستزول الوساوس ويطمئن قلبك.

والسلام على مَن اتَّبع الهدى...





# خاتمة

## مَن يستطيع أن يحجب نور الشمس؟



إنَّ مثَل الملحد والربوبي كمثَل مَن لا يرى الشمس في رائعة النهار. ومثَل الغافل كمثَل السفينة التي كُسِر مقودها وسط البحر فما عادت تدري في أي دوامة هي هالكة.

# خاتمة

## مَن يستطيع أن يحجب نور الشمس؟

إن أبسط حقيقة يفهمها المرء بصورة صحيحة بعد النظر إلى جوانبها كافها. أما أن ينظر إلى بضعة جوانب من حقيقة لها مئة جانب ثم يدَّعي فهمها وإدراكها واستيعابها فيصدر الأحكام والقرارات، فما ذلك إلا بُعد عن الحقيقة ذاتها وخداع لنفسه، ثم تراه يبحث عن الطمأنينة والراحة والسكينة والمستقبل الواعد في هذه الخدعة الكبرى.

وهنا تكمن متاهات الإلحاد والربوبية وعُقدهما ومكرهما.

إن محاولة حجب الحقيقة الساطعة سطوع الشمس في كبد السماء حماقة كبيرة هدفها إنكارُ الجوانب الكثيرة للحقيقة المطلقة وإشباعُ أهواء النفس والاقتصار على ما ينفع غفلة الغافلين.

مَن يستطيع أن يحجب نور الشمس؟

فما بالك بآيات الله تعالى وحقائقه التي هي أوضح من الشمس.

وقد عرض المعماري العثماني سنان في مسجد (سليمية) هذه الحقيقة بلسان نفهمه.

فعندما ننظر إلى هذا المسجد من الطريق الممتد إليه، نرى له مئذنتَين، ولكننا حينما ننظر إليه من جانب آخر، نرى أربعة مآذان.

إن النظر لا يكفي ليدرك الإنسان الحقيقة على الوجه المطلوب ما لم ينظر إليها من جوانب مختلفة. أي إنَّ أسلمَ طريقة لفهم مسألة ليس تقليل جوانب النظر فيها، بل زيادتها.

ففرويد وأمثاله من الفلاسفة مثلًا أخذوا جانبًا واحدًا من جوانب الحياة وأطلقوا أحكامهم بحصر الحياة في هذا الجانب، وتجاهلوا حقائق كثيرة، فضَلُّوا وأضَلُّوا. لذلك نجد أن كل مسألة يدرسونها بالاقتصار على جانب واحد تقودهم إلى الضلال لا إلى الفهم والاستيعاب.

لكن الفكر الإسلامي ليس بهذه الصورة، لأن الإسلام يحيط بكل حقيقة ومجال في الحياة، فيكون وسيلة بذلك إلى النجاة والفلاح في الدنيا والآخرة.

لإن تجاهل الحقائق وتبديلها بالخيالات والأوهام لا يوصِل المرء إلى أي حقيقة، بل يخنقه في الجانب الذي حصر نفسه فيه فيقع في الخسران المبين.

لذلك على المرء أن ينظر إلى كل جانب أثناء حساباته، فتجاهل الجوانب الأخرى في الحسابات يعني الإفلاس، أي إفلاس العقل والحياة والحاضر والغد، إفلاس يشبه الانتحار، وليس المذنب هنا إلا المرء نفسه لا غيره.

تمامًا كإفلاس التاجر الذي يتجاهل أرقامًا كثيرة أثناء حساباته.

ومن أجل ذلك تجد أن أشد الملحدين والربوبيِّين لا ينطلقون بناءً على أفكارهم الشخصية في التجارة، بل تراهم لا يهملون أي حساب صغُرَ أو كبُرَ في سبيل الربح، وكذلك يفعلون في الطب.

فمثلًا يسعون للكشف عن سبب مرض المريض قبل أي شيء، وإلا كان تشخيصهم خاطئًا ولن يقدموا العلاج للمريض. فهم إذن يبحثون عن السبب ويجدونه ويخبرون المريض به، ثم يخبرونه بأن التعافي يكون بسبب هذا العلاج أو ذلك بحجج وبراهين. أي إنهم يُصِرُّون على السبب ويوضِّحونه، حتى لو كانت بثرةً صغيرةً في الجسم.

ولكنهم مع الأسف بعد كل هذا التركيز على السبب يدَّعون أن وجود الكون والإنسان الذي يُعدُّ أشرف المخلوقات بغير سبب، فماذا تُسمَّى حماقتهم هذه؟

فهذه المشاهد البعيدة عن العقل والمنطق لدى الغافلين الذين يسعون للترقي بالحسابات ما هي إلا نتاج سعيهم للهروب من المسؤوليات في الدنيا.

ولا يفكِّرون بما ستؤول إليه الدنيا وهم أنفسهم حين يهرب الإنسان من المسؤوليات التي كلَّفه الله تعالى بها.

والتاريخ البشري بين أيدينا، فيه أمثلة كثيرة شوهِدَت وتُشاهَد وستُشاهَد. والحقيقة الثابتة التي لا تتغير واضحةٌ وضوح الشمس:

حينما يضع الإنسان أوامر الله تعالى عن ظهره ويتهرب منها، فإنه يجد نفسه وسط مصائب وكوارث ومشقات. فالظلم والجور والقتل والإبادات الجماعية وغيرها مما يندى له الجبين نتيجةُ هذه الغفلة. ولا يبقى هناك أمن ولا طمأنينة في العالَم بسبب هذه الحماقة... ويعمُّ الفساد والخراب، ويصير الناس إلى أسوء حال، ولا تُطاق الحياة، وتفضي رحلة الخلود إلى عذاب شديد.

ولكن عندما يعي الإنسان أوامر الله تعالى كما ينبغي ويؤديها، تغدو أشد مصائب هذه الحياة الفانية هيِّنة، وتفضي رحلة الخلود إلى الجنة.

فجوهر المسألة أن يرى الإنسان الحقيقة الكبرى القائمة من الأزل إلى الأبد بجميع جوانبها، ويدركها كما ينبغي.

أي يعي الحقيقة الأبدية بالتفكر والتدبر فيسأل نفسه: «لماذا خُلِقت؟ ومن أين جئتُ وإلى أين المصير؟ ولماذا؟ وماذا أُعِدُّ لتقلبات الحياة وكيف ينبغي أن أُعِدَّ لها؟ وبماذا أنجو؟».

وينبغي له ألا يجهل لطف الله تعالى ونعمه فيجحد، ولا يقع في فخ الأسئلة القائمة على المنطق الأعوج.

ولا بد أن يعلم أنه ليس لدى الملحدين والربوبيِّين إلا أسئلة غير منطقية لا ترى الأمور إلا من جانب واحد، وأنهم يرون الإبداع بغير مبدع، ويفترضون أن أفضل أشكال الإتقان بلا متقن، ويظنون الأسباب بلا مُسبِّب.

إن أولئك الغافلين يجولون في متاهات العقل، وكأنه ليس لتلك الأسئلة أجوبة، فيرون أنفسهم على حق. وهم في الواقع لا يفهمون حتى أوضح الإجابات ويفضِّلون- ولو كانوا عالِمين- العيشَ في جهل وإنكار يمنحهم حق التهرب من المسؤوليات كما يدعون.

ولذلك تراهم في ضلال أمام المسائل العظيمة واليقينيات الكبرى على الرغم من أنها تهُمُّهم وتؤثر في مصيرهم. وليس ذلك إلا ليعيشوا في هذه الحياة الدنيا هاربين من تحمل المسؤوليات، أي يعيشوا حياة لهو ومتعة لا تليق بالإنسان، فيقولون مثلًا: «لماذا يمتحننا الله إذا كان يعلم أننا سندخل الجنة أو النار؟»

وينسون حين يطرحون هذا السؤال أنهم يخضعون لامتحان تلو امتحان لسنوات طويلة من أجل نيل شهادة على ورقة! إنهم يقبلون هذا الامتحان الدنيوي لأنهم يدركون أن الكسول سيرسب والمجتهد سينجح، ثم حينما يريدون أن يوظِّفوا أحدًا، يسألونه عن شهادته التي ينالها بنجاحه في امتحانات كثيرة، فإنْ لم تكن لديه شهادة، لم ينظروا إليه.

فأي حماقة أشد من اعتراض الإنسان الذي يريد أن يقيم نظامًا في الدنيا بناءً على هذا الأمر وذلك، ثم يعترض على امتحان ربه إياه وتخييره بين الجنة والنار بناءً على هذا الامتحان؟

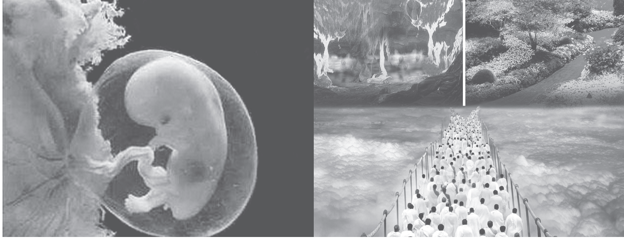
بأي منطق يجد هذا الإنسان الخطأَ في النظام الذي وضعه الله في الحياة وهو يعطي هذا ويحرم ذلك بناءً على نظام امتحان وشهادات؟

إنَّ مثَل الملحد والربوبي كمثَل مَن لا يرى الشمس في رائعة النهار. ومثَل الغافل كمثَل السفينة التي كُسِر مقودها وسط البحر فما عادت تدري في أي دوامة هي هالكة.

اللهم لا تجعلنا من الذين عميَت أبصارهم عن رؤية الحقائق، ونوِّر قلوبنا بأنوار القرآن والإيمان!

آمين!





جواب منطقي يدعو مَن لا يعقل للتفكر والتدبر:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٧-٧٩)

تحذير ربَّاني للمنكرين:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (القيامة: ٣٧-٤٠)

يقول الله تعالى مبينًا قدرته:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ (القيامة: ٣-٤)

والبنان هنا طرف الإصبع. وفي طرف الإصبع إبداع البصمات. فالله تعالى يخبر عباده عن هذا الإبداع قبل ١٤٠٠ سنة، أي قبل ١٤٠٠ سنة من اكتشاف الإنسان لعلم بصمات الأصابع.

وليست هذه المعجزة إلا واحدة من معجزات لا تحصى ذكرها القرآن الكريم!

